# مُعاناة مُعلِّمة

## قصَّة تربويَّة هادِفة

بقلم

خَوْلَة دَرْوِيش

دَار الحميدي

# مُعاناةُ مُعلِّمة

قصة تربوية هادفة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
دار المحمدي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية
جدة - حي الجامعة - شارع عبد الله السليمان
هاتف: ٦٨٩٧٥٠٩ - ناسوخ ٦٨٠٣٦٠٤
ص ب: ٩٣٤٧ - جدة ٢١٤١٣

# مُعاناة مُعالجة

## قصة تربوية هادفة

بقلم
خولة درويش

دار الحمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

هذه قصص من واقعنا الأليم...

جرت أحداثها في بعض الأقطار التي لا تحكم شرع الله، في خلال الستينات من هذا القرن، يوم بدأ يتصدى لصحوتنا، أناس يتكلمون بألسنتنا ويزعمون أنهم يريدون تقدمنا بالتنكر لتراث أمتنا.

وفي القصص مجموعة مواقف، تصور معاناة المثقفة المسلمة في سنوات التيه...

آمل أن لا تدفع قراءها إلى التشاؤم حين يرون السوء يصدر ممن يفترض فيهم رعاية عقل الأمة وحماية عقيدتها.

بل تكون لحفز الهمم وبذل الجهد، وحسبنا أن الخير باقٍ في أمتنا المسلمة إلى يوم الدين كما بشر المصطفى ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من

خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1].

ورسالة المعلمة وإن كان فيها عناء ومعاناة، لكن إذا صدقت النيات وصحت الجهود، فالتعليم هو السبيل الناجعة إلى خير عميم في الدنيا والآخرة. فلا يحتقرن أحد جهده، معلماً كان أو معلمة. فكل معاناة، إنما هي لرفع الدرجات أو تكفير السيئات.

هذا وكلي أمل أن تكون هذه القصة قد سدت ثغرة في متطلبات صحوتنا المباركة. وقدمت للفتيان والفتيات نموذجاً حياً يعالج قضايا الصراع بين دعاة التغريب الوافد، ودعاة الصحوة الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة.

أسأل الله أن يجعلنا جميعاً هداة مهديين غير ضالين ولا مضلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه الإمام مسلم والترمذي والبيهقي عن ثوبان ـ صحيح الجامع الصغير جـ ٢/ص ١٢١٩.

## (١)

# «بداية طريق الكفاح»

في حفل بهيج ضم الأهل والأحباب، تم زفاف الآنسة «سلمى» على الشاب الصالح «حسن» وكانت أبواق السيارات تملأ الجو في موكب الفرح والسرور، وهي تتبع سيارة العروس المصون.

كان الفضول يدفع الكثير من الشباب لرؤية تلك العروس، أما الذين شاركوا في حفل العرس فكانوا يتمنون لو رأوا صاحبة الموكب، ليعرفوا كيف شكلها؟! ومن تكون هذه التي تغطي جميع جسمها؟!

تغطي وجهها، وحتى كفيها فإنها ملتزمة بغطائهما...

وأنى لهم ذلك!! فلن يظفر برؤيتها إلا النسوة من صاحباتها، التقيات الثقات. ومن الرجال المحارم فقط.

حتى أبناء عمها لم يروها مذ كانت صغيرة تشاطرهم اللعب، وتشاركهم لهو الطفولة البريء...

ها هي سلمى قد كبرت، وأصبحت ذات مبادىء ثابتة لا تحيد عنها، وأسس راسخة يصعب زعزعتها. لقد تعاهدت مع

زوجها الصالح على الالتزام بدينهما مهما كلف الأمر. ويضحيان في سبيل ذلك بكل غالٍ ورخيص. أصبحا جداراً صلداً لا تؤثر فيه الرياح الهوجاء، ولا العواصف العاتية.

... مرت أيام العرس البهية، وانتهت العطلة الصيفية... وفتحت المدارس أبوابها، لتمارس «سلمى» عملها التعليمي في متوسطة خاصة، واضعة الدعوة اليقظة لدين الله نبراساً ينير طريقها.

أما تنشئة الأجيال المؤمنة فكانت من أولويات أهدافها. وبدأ الكفاح العذب، والعمل الجاد ضمن تلك الأهداف، دون اعتبار لتكون الوظيفة وسيلة للكسب أو المكانة، كما هو شأن الكثيرات.

وبقلب صادق كانت تدعو وهي تطأ عتبة المدرسة متضرعة:

ـ «اللهم اجعلني هادية مهدية غير ضالة ولا مضلة».

كان عملها فرصة سانحة لنيل الثواب تحرص أن لا تضيعها أبداً. أقبلت «سلمى» على عملها بحماس، فكانت كل كلمة من كلماتها، تزرع في نفوس طالباتها حب الله ومراقبته في السر والعلن. لما تتميز به من الإخلاص والانفعال الصادق في سبيل دينها.

حتى أضحت شخصية مؤثرة في كل من تسمعها، وأصبحت معلمة فريدة في مدرستها.

كان من المناظر المألوفة أثناء ذهاب «سلمى» للدوام، أن يقف بعض الناس يستغربون لباساً ما عهدوه من معلمة قبلها. ينظرون إلى جلبابها الأسود الواسع الأنيق. فلا يبدو من جسدها شيء، فهي المحتشمة الوقورة الجادة، تسدل على وجهها الغطاء الساتر، وتغطي يديها بقفازات سميكة. وتحمل بيمناها حقيبة أنيقة، تضم ما يلزمها من دفاتر وأدوات لا تستغني عنها أي معلمة.

كانت تسير بشموخ المؤمنة، وعزة الداعية لدين الله. ترتدي ثوباً من الوقار. تمشي بخطى ثابتة ميممة وجهها شطر مدرستها. بقلب ينبض بالخير، ولسان يلهج بالدعاء:

«اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أزل أو أُزل أو أجهل أو يجهل علي أو أظلم أو أُظلم».

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه، وألهمنا الإخلاص والصواب... كان يتكرر ذلك كل صباح... فيشعر كل من يراها أنها معلمة صاحبة مبدأ تسعى لتحقيقه دائماً.

وكثيراً ما كان يقال بصوت مرتفع، من بعض السفهاء، وبقصد إيذائها:

ـ «الموضة الآن فوق الركبة ب/ ١٥ سم»، أو يقولون بتطفل وسخرية: «تقدمت بلدنا!».

«الناس وصلت المريخ وبعض الناس ما زالوا مغلقين بهذه الأزياء الرجعية»!! يقولون ذلك عداء لمبدئها...

وكان الموقف لا يخلو من كلمات تشجيعية يعبر بها بعض الفضلاء عما يجول في صدورهم من سعادة:

«هذا والله هو اللباس المحترم... ليت جميع النسوة يلبسن مثلها... وكثّر الله من أمثال هذه المعلمة» وتسمع الشيخ الطيب يدعو بابتهال: ـ «الله يستر عليك يا بنتي».

وذات مرة، بينما كانت ـ سلمى ـ تسير مع إحدى زميلاتها من المعلمات، انطلقت الحجارة الصغيرة ترشقها، قادمة من مبنى حكومي (تابع للحزب العلماني الحاكم).

وترافق الحصى شتائم مقذعة للدين والمتدينين... والرجعية والرجعيين! وما كان من الزميلة إلا أن قالت وبتقزز:

ـ «اخص»! ما هذه الأخلاق المنحطة؟!

ثم أمسكت بيدها وهي تحث الخطى قائلة لها: هيا لنسرع! قالت «سلمى»: أي أخية لا تخشي الباطل مهما صال وجال فنهايته إلى زوال بإذن الله...

أمام توالي هذه العقبات وأمثالها من المضايقات، ورغم قرب المسافة بين البيت والمدرسة، اضطرت سلمى أن تنضم إلى زميلاتها المعلمات في استئجار سيارة للتخلص من المعاكسات اليومية الحاقدة.

* * *

أما في المدرسة، فلم يطل الوقت حتى بدأت سلمى تتأقلم مع البيئة الجديدة، وتنسجم مع الزميلات الجديدات، وتزداد قرباً من الطالبات، ولا سيما أن الجو العام في المدرسة كانت تسوده المودة، بعيداً عن القيل والقال.

كان جو علم ودراسة. والمدرسة عموماً تهتم بأنواع النشاط المختلفة وتفسح المجال لكل معلمة لتبدي مساهمتها فيه.

وكان حظ نشاط الدين موفوراً. فالطالبات المنتسبات له كثيرات، يتسابقن للانضمام إليه.

ففيه كل ما يبتغينه، وكل ما تصبو إليه النفس السوية، من قصص مفيدة، وتوجيهات خيرة فاح شذاها وعم نداها.

وأكثر ما كان يجذب الطالبات، التمثيليات المرحة والهادفة في آن واحد. تعدها المعلمة بكفاءة نادرة، بما حباها الله من الذكاء والكياسة وإقناع بالحجة.

والطـالبـات يقمـن بـأدوارهـن، فيتسـابقـن للحضـور والاستمتاع بمشاهدتها، حتى أصبحن ينتظرن موعد نشاط الدين على أحر من الجمر. موعد فيه تسفه آراء الشياطين، ويحارب أنصارهم وتنصر الفضيلة، وتنصف القيم العليا.

وفي أحد الأنشطة بينما كانت الدعوة عامة، ازدحمت القاعة على اتساعها بالطالبات وغالبية المعلمات. وكانت التمثيلية آنذاك بعنوان ـ الصلاة عماد الدين ـ وكان الحوار يدور بين تاركة الصلاة التي ألهتها الدنيا وزينتها عن أداء واجبها، وبين المؤمنة القانتة التي تؤدي فرضها فتصفو نفسها وتزكو أخلاقها. ولا عجب فالصلاة عنوان الاستقامة، وأساس الدين.

تقول ذلك علها تقنع اللاهية، بأن عليها إن أرادت أن تكون في عداد المؤمنات، أن تحافظ على صلاتها، ولا تفرط فيها أبداً، ولا تغفل عنها.

لقد تأثرت اللاهية التاركة للصلاة، وصاحت بصوت مرتفع سمعه الجميع:

ـ لا، لا أريد التقرب من الكفر، لا أريد القرب من الكفر، «بين الرجل والكفر ترك الصلاة». وما إن قالت ذلك حتى ضجت القاعة بالتصفيق لقولها ذاك، وكثيرات من الحاضرات ذرفن الدموع من فرط التأثر، وحرارة الإيمان.

. . . وخلال تمثيلية أخرى بعنوان ـ الحجاب رمز العفة ـ وبعد جدال طويل وأخذ ورد مع الفتاة التي تدعي الحضارة، وأن الحجاب قيد وتزمت، والسفور انطلاق وحرية، اقتنعت العاصية أخيراً بأن التدين عنوان الحضارة. وأن التمسك بتعاليم الدين، والتحلي بأهداب الفضيلة، والتقيد باللباس الشرعي. . .

هي الحضارة الحقة التي ترتفع بالمرأة. . .

وفي نهاية التمثيلية، فتحت التائبة ذراعيها، وعانقت زميلتها المتدينة وهي تقول:

ـ أختي الحبيبة، لقد انتشلتني من القاع، لقد صببت بلسماً على نفسي القلقة الحائرة.

ثم رفعت أكف الضراعة تبتهل إلى الله وهي تقول:

ـ «اللهم اغفر لي ذنبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

بعد ذلك الحفل، جاءت المديرة تزف البشرى إلى «سلمى» وتهنئها من كل قلبها على ذلك النجاح الباهر، والعمل البار.

وهكذا، خلال فترة وجيزة اشتهرت المدرسة على صغرها بالاستقامة. والتواصي على الحق.

وتحسنت أحوال الطالبات فيها. . . فقد أشعلت «سلمى»

النفوس حماسة، وآتت كلماتها المخلصة أكلها. فبدا التهذيب على الطالبات واضحاً، وتآخت قلوبهن، وتآلفت نفوسهن، وجددن العزم على العمل بما يرضي الله تعالى.

لقد تعلقت قلوب الطالبات بمعلمتهن، وصرن يترددن على بيتها بسرية مطلقة، فقد يخترن الباب الخلفي للمنزل، وذلك حذراً من أن يراهن المتطفلون من المارة في الشارع الرئيسي فلا يتسبب لهن الأذى من المخبرين...

لقد أنار الله بصيرة ـ سلمى ـ فأرشدت الطالبات إلى ما فيه منفعتهن، كانت تحدثهن عن أخبار العلماء وسلفنا الصالح من النساء، فتحفزهن على الالتزام بالدين، وطاعة أمر الله، فتشعل في قلوبهن الحماس لأن يقتدين بسلفنا الصالح في أقوالهن وأعمالهن.

كانت تراعي الجميع فتشملهن بلطفها، وذوقها الرفيع وكريم خصالها. كانت على ثقة أنهن كتومات حتى عن كل كلمة تقال فيما بينهن.... فعلى ذلك ربتهن... ولهن خير قدوة في المسلمين الأوائل في دار الأرقم...

وفي كل يوم كانت مكانة المعلمة ـ سلمى ـ تزداد في قلوبهن. فقد وجدن فيها المثقفة المتدينة، وجدن المسلمة التي تقول وتعمل، وتجذب بعذب حديثها كل من

تسمعها.... كانت أشبه ما تكون بوردة فواحة تنثر كلماتها عبيراً وشذى يعطر الأجواء، فأحبها الجميع....

وفي يوم من أيام المدرسة الودودة.... وفي فترة الظهيرة، حيث كانت نوبة المعلمة مع زميلاتها، قررن عمل أكلة شعبية يشارك الجميع في عملها ويسعدن في ذلك...

كانت الطالبات يتوافدن، الواحدة تنادي زميلاتها، ليسترقن النظر من الباب إلى معلمتهن، وقد أمنت أن لا رجال يرونها، فخلعت جلبابها وارتدت (مريول) المطبخ فوق ملابس أنيقة كانت تسترها بالجلباب....

لقد بهرهن المنظر الفاتن.... وما كان الجلباب عائقاً لمعلمتهن عن الأناقة فلها من جمال الذوق ما يفوق غيرها من زميلاتها السافرات... ولم لا، وهي عروس وتلبس من جهاز عرسها الجديد؟!.

هذا فضلاً عن بشاشة الإيمان التي تزينها، وما حباها الله به من هيبة ووقار....

كنّ يرينها وهي تصلي في خشوع وسكينة، ينظرن إليها بانبهار واحترام، وهي تتوسط المصلى الصغير مع طالباتها في غرفة النشاط الديني.... وما هي إلا أيام قلائل حتى صرن يلتحقن في صفوف المصليات...

كانت متواضعة مع طالباتها، فهي تعاملهن كمربية، وطالباتها أخوات لها. لا تريد أن ترى إحداهن ذليلة منكسرة.

ومع ذلك لم يزحزح هذا من احترامها في قلوبهن قدر أنملة.

تتكلم معهن بما يليق بأمثالها من كلام عف نظيف، وتساهم في حل مشكلاتهن حتى اعترف الجميع، بأنه لا زال هناك في الدنيا قلوب طاهرة ومشاعر خيرة.

تدفعهن لاستثمار فترة الشباب في دروب الخير، تهديهن الأشرطة التي تفيدهن، لأنها تسعى لتحصين نفوسهن لئلا يلعب الشيطان بوساوسه، وحتى لا تغريهن مفاتن الدنيا ونزوات الصبا.

أضحى الكل يحرص على رضاها، فلا تحتاج لضبط الفصل أكثر من نظرة فإن شعرن باستيائها من موقف ما، كنَّ يسارعن إلى الاعتذار...

وهكذا... مرت الأيام في تلك المدرسة بسلام، دون ما يعكر صفوها شيء لكن النفس التواقة إلى الخير، والتي تتطلع إلى معالي الأمور... تطلعت إلى المزيد.

إنها تود أن تصب جهودها في قلوب أكبر عدد ممكن من الطالبات لتعم الفائدة.

لقد راودتها نفسها أن تنتقل إلى مدرسة أكبر. وزين لها ذلك الخلص من صاحباتها.

فقررت التقدم بطلب عمل حكومي، وعمل مسابقة، وذلك لتحقيق أملها ولإتاحة الفرصة أمامها للقيام بواجبها في الذود عن حياض الدين. وللتصدي ما أمكن للمحاولات الشريرة التي تحاك للمرأة حتى تصبح تابعة للشرق الكافر أو الغرب الملحد، علها تعيق مسيرتهم على الأقل، بإعداد جيل النصر المنشود، بتربية المرأة الصالحة، التي تربي الأجيال الصالحة.

وبدأت التحريات عن المعلمة ـ سلمى ـ

لقد انتهز أحدهم فرصة غياب المديرة للسؤال عن المعلمة، وأخذ معلومات عن عنوان بيتها، وعن عمل زوجها...

وقد أفسد على الجميع الفرحة حين دخل يطلب معلومات لا تخفى على من كان في مثل عمله من المخبرين في البلدة.

كان صعلوكاً لا يؤبه لأمثاله عند فضلاء البلدة....

كانت نصائحه التي تركها للمعلمة سلمى: «أن تتجنب المشكلات لأجل مصلحتها! فلا تستمر في توجيهاتها الدينية

للطالبات بهذا القدر، وذلك حتى يزكيها أمام المسؤولين!».

أما سلمى فكان لسان حالها يقول: «مهلاً لست بحاجة إلى تزكيتك، ولا يشرفني ذلك منه ومن أمثاله، فنحن نقوم بواجبنا الشرعي، وتربية أخواتنا وبناتنا على الفضيلة والحجاب الساتر».

وعندما علمت المديرة بمجيئه في ذلك الوقت، غضبت أيما غضب، وقالت: ـ أو ما كان الأجدر به أن يأتي في وقت الدوام الرسمي؟!

لكن وماذا سيصنع غضب المديرة؟! وهل تظن أن سلطتها أقوى من أمثاله؟!.

لقد كان ضليعاً في الكذب وتمثيل الأدوار، فتلك مؤهلات المخبر الرئيسية.

فإياك يا سلمى أن تثقي بأمثاله، إن الخيانة ذميمة وشوهاء!

وسارت الأمور على ما يرام، وتتابعت الأيام....

وتحقق انتقال المعلمة سلمى، وكان يوم الوداع المرير، دمعت فيه أعين الجميع، حتى من يخالفنها في المعتقد كن باكيات في ذلك اليوم، وكأنهن يقلن:

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا
إلا بقية دمع في مآقينا

وأما سلمى فقد ودعتهن، وهتفت بقلب مؤمن مخلص، وبصوت مؤثر: أحبتي، ليس هذا هو اللقاء الأخير.

نلتقي في دروب الخير، وفي مجتمعات الفضيلة... نحن جميعاً نصب في نهر واحد لنروي المتعطشات للنبل، والظامئات للحقيقة، فلنكن روحاً واحدة، تخفق بخفقة واحدة. تحمل هم الإسلام. ولندعو لبعضنا في ظهر الغيب.

«اللهم اجمع قلوبنا على التقوى في الدنيا، واجمعنا في الآخرة في الفردوس الأعلى».

لقد كان ذلك أول طريق الكفاح للسيدة سلمى، تحملت من أجل عقيدتها، إنقاذاً لبنات جنسها مما يحيكه دعاة التغريب والعلمانية لهن.

## (٢)

# «الطائشة»

يا لفرحة الطالبات المتدينات في مدرسة (دار المعلمات) مدرسة تأهيل المعلمات ـ وهن يتناقلن خبر تعيين المعلمة (سلمى) في مدرستهن، فقد كانت فرحتهن لا توصف، وحلمهن قد أضحى حقيقة.

ها هي المعلمة المعروفة بتدينها المتين، وهمتها العالية، وحجابها المميز، تتخطى أعتاب أكبر مدرسة في المنطقة. لتصبح أول معلمة من بلدهن تفوز بالوظيفة فيها.

ولفت أنظار الجميع، نجاحها الباهر في مسابقة المدرسات... أصبحت الوفود تأتي لبيت المعلمة مهنئة، من أمهات طيبات متهللات الأسارير يدعين الله لها بالتوفيق، ويأملن في قدومها إصلاح المدرسة بأسرها.

وتهنئها صبايا في وجوههن مخايل النجابة، ويعرفنها عن المشاكل التي زرعت في المدرسة ويتطلعن لقلعها من جذورها.

يحدثنها عن الهموم التي يأملن أن يكون مجيئها للمدرسة البلسم الشافي لإزالتها وإزالة الغبش الذي حجب الرؤية الحقة

عن الكثيرات. كانت الفرحة غامرة، والآمال عريضة لدى الطالبات المحافظات... أما العابثات فقد انقبضت صدورهن، فهن غارقات في اللهو هاربات من الفضائل. ناقمات على كل من يسدي لهن نصحاً.

أما المعلمة - سلمى - فهي وإن كانت الناجحة الثانية في دورتها تلك، لكنها كانت تعتقد أن العلم بحر، ربما لا تكون قد تخطت ساحله بعد، وما عليها إلا أن تجتهد وتبذل كل ما في وسعها...

بدأت تثري معرفتها، وتنمي مكتبتها ليكون ذلك عوناً لها في مهمتها عسى أن ترفع اللبس وتكشف الطريق.

فهي قد وضعت قدميها في بوابة طريق مليء بالأشواك، فلا بد من إعداد العدة لتخطيها... وبذل الجهد لاقتلاعها... تلتمس في مهمتها الجليلة الأجر من الله تعالى.

وفي إحدى حصص التربية الدينية، في الصف الثالث من مرحلة دار المعلمات كانت الطالبة سمر، وقد سرحت شعرها بعناية فائقة وتجلس بطريقة متغطرسة في المقعد الأخير...

كانت تضع يدها على خدها، وتتكيء بمرفقها على المنضدة أمامها. وتنظر للمعلمة بتحدٍ سافر. ثم سألتها بكل صفاقة:

ـ هل الله موجود؟ ومن يعرفني ذلك؟

في الواقع لم يكن السؤال مفاجئاً للمعلمة في تلك المدرسة، فالتيارات الفكرية كانت مضطربة. . . .

لكن كيف يصدر عن طالبة مسلمة، وفي حصة الدين هذا السؤال؟!

كانت ـ سلمى ـ تتوقع السؤال من الزميلات في العمل من غير المسلمات أو ممن عرفت عنهن الميول التي يسمونها ـ ثورية ـ علمانية ـ تحررية. . . أما أن يصدر السؤال عن ـ سمر ـ وهي إحدى صبايا عائلة الخبايا الكبيرة في البلد، فهذا ما لم يكن في الحسبان!

لكن المعلمة تحلمت، وكتمت غضبها، ثم سألت الطالبة:

ـ ومن خلق الكون إذن إن لم يكن الله تعالى؟! ردت ـ سمر ـ وهي تهز كتفيها باللامبالاة: ـ الصدفة ـ الصدفة أوجدت الحياة الأولى!! بدأت المعلمة توضح، وتزيل الأدران التي غمروا بها الأجيال فقالت:

ـ يا بنيتي، إن المصادفة العمياء أعجز من أن تقدر هذه المقادير الدقيقة التي لا يملك وضعها إلا الحي القادر.

لكن الطالبة التائهة لم تشأ أن تصمت، بل ردت وكأنها

تسمع درساً حفظته ولقنت إياه، فأعلنت الحرب على الله ورسوله بكل صفاقة:

- إن الحياة الأولى جاءت نتيجة تفاعل طبيعي بين أجزاء من المادة وهذه المادة كانت ولا تزال بطبعها قادرة على إعطاء الحياة. فالحياة تكونت من المادة مباشرة بفعل الطبيعة!

ومعلمتها الشفوقة كانت تسعى لانتشالها من الهاوية بقولها:

- يا سمر، مهما أنكرت وتكبرت، ورفض لسانك الاعتراف بوجود الخالق جل وعلا، فإن ما تقولينه هو اعتراف منك بوجوده، إن الاعتراف بالحق فضيلة يا سمر...

فالنظام والتناسق الدقيق أقوى دليل على وجود منظم مدبر ينظم الكائنات كلها، وهو الخالق - الله سبحانه وتعالى - ولم ينكر أحد أنه خالق حتى في أحلك أطوار الجاهلية:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2].

(١) [الزخرف: ٨٧].
(٢) [لقمان: ٢٥].

يا بنيتي: لا تغرنك سخافات الأعداء، يجب أن لا نأخذ مما يسمونه ثقافة إلا ما يناسبنا، حتى لا نتعثر أو نتخبط في التيه.

يا سمر! لا تدعي جراثيم الشر تفتك بعقلك وقلبك...

وبعد جدال طويل، لم يبد على سمر أي اقتناع. لقد اتبعت هواها فضلت ضلالاً بعيداً. وتأثرت بتيارات يسارية غرستها بعض معلماتها ومع مزيد الأسف، لقد ران على قلبها كابوس الضلال، فلم تر جمال الحقيقة، وأخذتها العزة بالإثم فتمتمت في عناد ومكابرة:

- هذه رجعية!

سرت القشعريرة في صدور المتدينات، ونظر بعضهن إليها نظرات كلها احتقار وحقد وازدراء، ونظرات إشفاق ورثاء عند أخريات، ولسان حالهن يقول:

- ها هي أجيالنا تلهث وراء السراب...

يجب أن لا ندع أعداءنا يسرقون إيمان الأجيال...

ثم يلتفتن لمجادلتها بالحسنى وينادينها:

- يا سمر! إننا إذا لم نستطع أن نحطم الكف التي تمتد إلينا بسوء فلا يجوز لنا أن نقبلها!

يا سمر: إن الغزو الفكري طغى على تفكيرك فأفيقي!!

أما سمر فقد كانت زميلاتها في واد وهي في واد آخر، كانت تنوء تحت وطأة التقليد والتبعية، والشعارات الفارغة البراقة... كانت ترى أحياناً بجفون زرقاء لونتها باسم الموضة والتمشي مع العصر حتى مخالبها فقد أطالتها وصبغتها مناصفة بالحمرة والزرقة، فصارت أشبه بمخالب القطة الشرسة.

لقد طغت مصروفاتها من أجل الزينة على كل الحقوق والمصروفات الأخرى.

وكثيراً ما كانت تكتب على السبورة معادلات عن الحب والهيام، أو شعارات التحرر والانطلاق. فكم كانت تنقش على أشجار المدرسة عباراتها: حريتي، مستقبلي، راحتي...!

ويا ويح من تعترض، أو تحاول مناقشتها في مسلماتها تلك!

قالت إحداهن: ما هذه الشعارات الجوفاء؟ وهل الحرية في لبس المثير العاري؟!

ردت عليها بكل وقاحة: وما شأنك أنت؟ تتدخلين فيما لا يعنيك فهذه حريتي الشخصية، عليك أن تحترميها أنت وغيرك!

لكن زميلتها أكملت:

ـ تلك عبودية للشهوات من حيث لا تدرين. فوا أسفي على من تغوص في لجج الظلمات وهي تحسب نفسها على شيء!!

أما سمر فقد تركتها، وتابعت سيرها. . .

وبين ردهات الفصول، وفي ممرات المدرسة، كانت لا تني عن نشر سمومها. تغمز بالمتدينات وتسخر منهن. . . إنها صاحبة رسالة رغم تصدي زميلاتها لها. . .

كن يسمعنها من عذب الحديث ما لا تستحق، علّها تعود إلى رشدها وحتى لا تؤلب عليهن إدارة المدرسة. لقد قلن لها:

ـ إننا شقائق الرجال، فواجبنا المساهمة مثلهم في بناء أمتنا، والعمل على إحياء السنن المهجورة. . . لا أن نكون ممن يهدم ويهجر حتى الواجبات. . . .

كان في تلك المدرسة نخبة طيبة من الطالبات الفضليات يسعين لانتشالها من الظلمة الحالكة وإنقاذها من براثن الشك والشرك.

حاولن معها بالإقناع تارة وبمخاطبة عواطفها تارة أخرى. . . لكن دون جدوى وفي كل مرة كانت المعلمة من

ورائهن تثبتهن وتوجههن نحو الأسلوب الأمثل للإقناع.

وذات مرة، أحضرن لها صحيفة تحمل عنواناً واضحاً يهم أمثال ـ سمر ـ ممن يتتبعن أخبار المرأة، لا سيما الأجنبيات، وسألنها:

ـ ما رأيك بما نشرته الصحف مؤخراً عن النساء السويديات اللواتي خرجن في مظاهرة عامة، احتجاجاً على إطلاق الحريات الجنسية؟! لقد اشترك في المظاهرة ـ ١٠ آلاف ـ امرأة، يعلن الاعتراض والاحتجاج على تدهور الأخلاق، وانتشار الرذيلة.

وقالت إحدى زميلاتها الواعيات: لن نحدثك عن نساء مسلمات، فما رأيك يا سمر بمظاهرة السويديات الداعية إلى الالتزام بالأخلاق!

... وكان الجميع يضرب في حديد بارد... وسمر مصممة على انحرافها. وقالت بتبجح: سأخرج إلى النور... إلى الدنيا لأسير مع ركب الحضارة ولتبقوا أنتم في قيود التقاليد ـ ومبارك عليكم قيودكم.

نصحنها أن تقوي صلتها بالله، ذلك لأن العقيدة إذا رسخت في النفس كانت حصناً منيعاً يقيها من هجمات العدو الماكر بأساليبه ودسائسه، قلن لها:

ـ يا سمر! اتق الله أن يراك حيث نهاك.

يا سمر! إذا جاءت الزبانية وفتحت أبواب الجحيم للمعاندين فما الحيلة؟ وقد قال الشافعي رحمه الله:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه
وإن بناها بشر خاب بانيها

يا سمر! أما آن لك العودة إلى دين الله؟!

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(1).

أما سمر! فقد أعلنت بعناد واستكبار:

ـ لن استمع لمواعظكن...! احتفظن لأنفسكن بنصائحكن... ومشت وهي تتمتم: متخلفات! رجعيات..!

.... ومرت الأيام... وكاد سلوك سمر وأمثالها ينسى، لولا الحديث المهموس في المدرسة كلها:

---

(١) [سورة الحديد، آية: ١٦].

ـ أسمعتم، لقد وقعت سمر في شراك ذلك المدرس النصراني (لويس)!

لقد أصبحت سمعتها تلاك في كل لسان.

ـ أين أهلها وعشيرتها؟!

إنهم لن يسكتوا على وصمة العار، ولن يقر لهم قرار وقد تلطخت سمعتهم بالطين.

لقد هربت سمر مع النصراني الفاجر، وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم.

ـ فماذا دهاها وهي ابنة العشيرة المرموقة؟ وكيف صنعت بسمعة أهلها؟! وكيف وقعت فريسة لمن لا يحل لها الزواج منه أصلاً.

وأصوات هامسة تقول:

ـ هذه نتيجة التربية المضطربة، نتيجة الحرية المزعومة والكبت الشديد: فقد كانت تلقى في بيت والدها سوء التوجيه، فلها من أبيها الخصام المتلاحق بل والضرب في كثير من الأحيان... ولها من أمها بذيء القول وجارحه... حتى إذا كان الأمر يتعلق بأهوائها فإن أمها تربت عليها وتخفي الكثير عن والدها...

كانت سمر تتطلع إلى الفرصة المناسبة لتخرج من ذلك البيت.

وبئسما اختارت!

اختارت مدرساً نحيفاً شاحباً، لا يحسن التصرف، بعيداً عن اللباقة والذوق السليم.

كان أكثر ما يسره معاكستها واستخفافه بها ولو على مرأى من زميلاتها الطالبات. لكن ما كان يخطر ببالهن تلك النتيجة القبيحة!!

وله حركات غريبة تلتقطها الطالبات بسخرية ليقلدنه عندما يغمض إحدى عينيه ويرفع أرنبة أنفه، ولسان حالهن يقول:

ـ إن الذي خلق «لويس» على هذه الهيئة الدميمة عادل وحكيم. وفي غرفة المدرسين، كان «لويس» أضحوكة لزملائه، عندما يضع قدميه معاً على الأريكة بطريقة سوقية...

وحين كان يجادل عن ثقافته وأفكاره الضالة، ويتطلع إلى من يتحدى ثقافته الوضيعة.

لكن سمر، وهي محدودة التجربة، قليلة الخبرة، لم تجد في بيتها من يرشدها ويأخذ بيدها في الوقت المناسب.

كانت تشعر أنها محتاجة إليه، أصبحت تتعاطف وإياه،

واطمأنت له حين قال لها: إنه فتح قلبه المغلق لها وحدها، فكـان يشكـو لهـا تعـاسته، وتحكـي لـه عـن معـانـاتهـا فـي البيت.... وكلما كانت العلاقة تتوطد بينهما، كانت تزداد فرحتها، والدنيا تكاد لا تسعها. وزميلاتها يتهامسن ليسمعنها حديث الرسول ﷺ:

«إذا خلا رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما».

لكن لا حياة لمن تنادي!

لم تسعها الدنيا حين أهداها قلباً من الذهب لتحلي به صدرها. فكانت سعيدة بتلك الهدية، تعلقها دائماً في صدرها وباعتزاز مشين!

يا للوقاحة العجيبة! لقد أضحت أمنية «سمر» الزواج من «لويس» إذن جمعهما الشرود عن الدين والفضيلة، كلاهما غاص معاً في لجج الظلمات، وإلا أي عاقلة ترضى أن تبيع نفسها رخيصة لتكون حطباً لجهنم؟!.

لكنها نزوات الشر التي تمكنت من قلب «سمر» ومن ثم غلبتها. لقد تجرأت على كل القيم والتقاليد!

تجرأت على الشرع الحنيف وهي تسمع قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ فكان في كلامها الميوعة والنبرة اللينة واللهجة الخاضعة...

تجرأت عندما أقدمت على هذا الزواج، رغم أنها وهي المسلمة لن تستطيع منع زوجها النصراني من تربية أطفالهما تربية نصرانية...

وتجرأت عندما دنست كرامتها، وتركت عقيدتها، وخانت أهلها وكان آخر عهدها ببيت والدها حين سألتها أمها:

ـ أصحيح ما يلوكه الناس يا سمر؟ ما على هذا ربيتك؟

ردت البنت بوقاحة: «وماذا في ذلك؟! أنا أختار شريك حياتي، وهذا حقي وحدي!».

أمسكت بها أمها بكلتا يديها وهزتها هزاً عنيفاً، وكادت أن تخنقها لولا أنها هربت من بين يديها....

لقد هربت... هربت سمر مع مدرسها وعشيقها النصراني. ذهبا إلى خارج البلاد، ولكن أخبارهما كانت تغزو المدرسة باستمرار....

لقد غوت وأعماها الحب التائه المعوج عن كل ما عداه.

ها هي سمر قد جرت وراء طيشها، وهربت مع عشيقها، وتورطت في الاستجابة لرغائبها ونزواتها. وأصبحت تشتعل غيرة عليه. ولا تطيق أن ترى أحداً يتحدث معه أياً كان! وباتت تبث من حوله العيون!

وما كفاها في غربتها في بلاد الكفر أن ترى الانحرافات

الجنسية في الشوارع والمحافل. . . بل أصبح «لويس» يأتي بالعشيقات إلى بيتها ويكايدها علناً.

لقد باعت نفسها للشيطان فهانت على «لويس» ليسومها المذلة والهوان!

لقد بهت الطلاء، وظهر زيفه، وبدا «لويس» على حقيقته الكالحة. لقد انغمس في الملذات، وأصبح مسرفاً وكسولاً، لا يحسن إلا لغة الهيام والغرام. وأما سمر فكانت حالتها تنتقل من سيىء إلى أسوأ! لقد أذلها «لويس» عشيق الأمس، وخيب جميع آمالها. ووجهها المعروق يحكي عن تعاستها وسوء حالها، لقد بدأ يكفهر مع صفرة وذبول، فازداد قتامة وشحوباً.

وأضحت لا ترى إلا شاردة اللب، ذاهلة الفكر، حبيسة الأحزان.

كل ذلك كان يحكي بعض عذابها ومعاناتها من هذا الزواج التعيس. وكلما تذكرت نصائح معلمتها «سلمى» وزميلاتها، استعر قلبها لهيباً وعذاباً. . .

لم ينفعها تذللها وما أبدته من مظاهر الخضوع، وإذا نصحته ليقلع عن سوء فعاله كان يلطمها على وجهها.

ويا ويحها عندما عارضته برأيها، فاعترضت على قبيح أعماله، لقد ثارت ثائرته، وما كان منه إلا أن لكمها على فمها

لتتلقى اللكمة بيدها فتتضرج بدماء فمها. . .

أخذت يومها تبكي بمرار ة وتقول: لمن أشتكي؟!

إلى «جورجيت» صاحبتي التي كنت أئتمنها على خلجات نفسي وأبوح لها بكل أسراري، هي أيضاً إحدى الخائنات.

ثم تقول بتصميم: لن أشتكي بعد اليوم لامرأة!

سأشكو أمري إلى «وليام» صاحب زوجي، ثم إن له نفوذاً قد يؤثر عليه. . .

ورفعت سماعة الهاتف لتحدثه عن زوجها. . . فهالها أن في لهجة «وليام» طري القول، ومغمز الحديث. . لقد ظنها صيداً سهلاً لكل فاجر! وضعت سمر سماعة الهاتف، وضربت رأسها بكلتا يديها، وبدأت تنتحب وتبكي بحرقة لخيانة صديقاتها وأصدقاء زوجها وتقول: أضحى الناس كلهم ذئاباً. . . !

كانت الصدمة قاسية على سمر، ولم يعد في جعبتها إلا البكاء. فأضحت لا ترى إلا باكية حياتها المظلمة التعيسة. وحتى في نومها كانت تتراءى لها الرؤى المزعجة. وكان الكابوس الذي يلاحقها، ويداوم على تقريعها:

إن كل علاقة لا تبنى على حب الله تعالى، فنهايتها جحيم وعذاب. وتكرر: عذاب، عذاب، عذاب! فتصحو فزعة

مشدوهة! وبعد أيام من اليأس والقنوط والآلام المبرحة، استيقظت يوماً وهي تردد: إلى متى أموت كمداً؟!

يجب أن أجد حلاً، يجب أن أضع نهاية لآلامي!

ذهبت «سمر» إلى المطار، علَّها تجد مسافراً إلى بلدها، وهي تتطلع إلى المسافرين، تتفرس في ملامحهم وأشكالهم.

وعندما وجدت أحد المسافرين الطيبين، سألته:

ـ هل تستطيع أن توصل رسالة؟! وأجهشت في بكاء مرير، فرق لها قلب الرجل، فشجعها لكتابة ما تريد، فكتبت رسالة موجزة لأهلها تشرح بعض ما تعاني... كتبت أشياء مفهومة، وخطوطاً مبهمة كتبت لتقول:

«هذا ذل التحرر الذي أردته! هذه عبودية الشهوات التي قد جعلتني مهانة.

علَّموني أن أكون متحررة ناقمة رافضة لكل المبادىء المألوفة. وما لم أشأ تعلمه أن الحياة إلى فناء، وأن العاقل من جعل مسرته في عمارة آخرته، لا خراب آخرته ودنياه!

أتكون هذه نتيجة التسامح ليقابلنا ذلك الوغد بالجحود؟!

ويح الجَحود! كم ينعم هو وأمثاله بالأمن في بلادنا، وبعد ذلك يسعون لتهديم قلاعنا الحصينة!

لقد كان «النذل» جلاداً ولم يكن زوجاً، كان كاذباً خداعاً حين تظاهر بإسلامه.

أدركوني! أنقذوني ولا تتركوني!».

وكانت قطرات من الدمع تبلل كثيراً من الكلمات الدامية المكلومة... لكن «سمر» هي المتهم وهي المجني عليها. وهي وحدها التي تتجرع غصص العذاب.

إنها متهمة بكل التعالي والعناد والكبرياء... ومجني عليها من اللادينية العابثة، من العلمانية الوافدة، من وهن العقيدة وسفاسف التحرر. لقد رأت الحقيقة بعينها بعد خراب. لا تصلحه الدموع.

وطارت الطائرة وشخصت عيناها وراءها... وحلق الأمل.

## (٣)

# «الأزمة تلد الهمة»

قرع باب ـ الصف الثاني ـ في دار المعلمات، وجاءت المراقبة تقول: مدير التعليم في المنطقة، يزور المدرسة اليوم، وهو في طريقه يتجول في الفصول....

كانت تخبر بذلك كل الفصول الدراسية، مؤذنة بقدومه، ليحسن استقباله، والاحتفاء به كما يليق بمكانته.

تابعت المعلمة ـ سلمى ـ شرح الدرس، وكانت كعادتها تقف أمام المنصة الخاصة بالمعلمة، ثم تسجل على السبورة ما تريد تثبيته في أذهان الطالبات من أفكار هامة، وعناصر أساسية. وبعد بضع دقائق من إعلام المراقبة، دخل الموكب المنتظر، مدير التعليم، ومديرة المدرسة، والمراقبة تفتح له الباب، وتتبعهم السكرتيرة وغيرها من الإداريات في المدرسة...

عرّفت المديرة بالمعلمة ـ سلمى ـ

وكان من العادات المتبعة، ومن المتعارف عليه كلياقة: أن يُصافح الزائر أياً كان!

فكيف إذا كان مسؤولاً كبيراً كمدير التعليم؟!

كانت ـ سلمى ـ تعرف ذلك جيداً، فوضعت يديها خلف ظهرها، منعاً للحرج.

انتفض المدير (القزم) وتراجع بعد أن همَّ بمصافحتها، لكنها بقيت ثابتة أمام مكتبها، واكتفت برد مقتضب للسلام.

فقال للمديرة باضطراب: هذه المعلمة لم أرها من قبل!

هل جاءت بخطاب تعيين؟! فلما ردت المديرة بالإيجاب، استغرب ثم قال بوجوم: كيف ولم أر الخطاب ولا المعلمة؟

لكن المعلمة ردت بأدب جم: زوجي جاء بالخطاب من مديرية التعليم ولم أذهب أنا!

لم يلبث المدير في الفصل بعد ذلك سوى لحظات ثم خرج، وكانت تلك الحصة الأخيرة في اليوم الدراسي.

وعادت الطالبات إلى بيوتهن يتناقلن أخباراً فيها جزء من الحقيقة ويكثر فيها الخيال...

وقد ظهر ذلك من استفسارات الأهالي، فقد سأل أحد آباء الطالبات، سأل زوج المعلمة ـ سلمى ـ إن كان حقاً أن مدير التعليم قال أن وجود حرمكم في المدرسة غير نظامي، وآخر يسأل:

ـ أصحيح ما سمعناه، أنه مد يده ورفضت حرمكم المصافحة، وقد غضب كثيراً لأنها لم تصافحه... ثم خرج مهدداً ومتوعداً؟!

وآخر يسأل: أحقاً أنه استهجن لباسها، وقال للمديرة: ما هذا؟ مشيراً للباسها المحتشم، وجلبابها الفضفاض وحجابها الساتر؟ وكأنه يظن أن التقدم لا يكون إلا في تحطيم كل ما له صلة بالماضي حتى ولو أدى ذلك للتحلل والفساد؟!

... وفي اليوم التالي انتظرت المعلمة ـ سلمى ـ زوجها للغداء بعد الظهر. لكنه تأخر عن عادته، فلم يحضر إلا بعد حوالي ساعة، مرت بقلق كبير، وانتظار شديد. لقد مرت الساعة، وكأنها ساعات ثقيلة طويلة، واستقبلته زوجه الودود سلمى ـ متلهفة، وقبل أن تسأل عن سبب التأخير بادرها زوجها بقوله:

ـ قاتل الله الأشرار، لن يتركونا بحالنا... ثم صمت قليلاً وقال:

ـ لقد أرسل لي (القزم) يطلبني لمكتبه، فذهبت من مدرستي وتركت حصصي! نعم لقد تركت حصصي... وهكذا يريد. فهو لم يراع حق الزمالة التي أمضيناها معاً في الجامعة. وقد كان الزميل الكسول في الكلية. ثم تابع بانفعال:

ـ تصوري إنه يعترض على لباسك الحجاب!

بهتت سلمى إزاء ذلك وقالت:

عجيب أمره، وماذا يضيره من حجابي؟ أين الحرية الشخصية التي يدعيها؟! أما زوجها فأردف قائلاً:

ـ بل إنه يمن عليّ قائلاً: إني قدرت أنك زميل، ولولا ذلك لاستدعيت زوجتك لتحضر هنا كأي موظفة. لكني احترمت الزمالة وأرسلت لطلبك أنت بدلاً منها.

ويعلق الزوج حانقاً:

ـ خسيء إنه يعلم أنك لن تذهبي دون استئذاني، وإنه على يقين أن طلبه سيرفض!

كانت ـ سلمى ـ تسمع هذا الكلام وتتلهف لتعرف ما علاقة المدير بلباسها فما تعتقده أن ذلك من خصوصيات المعلمة. فسألت زوجها مستنكرة:

ـ وما دخل المدير بالزي الذي ألبسه؟!

قال الزوج: تصوري أن الخسيس يقول بكل صفاقة:

ـ اسمع يا أستاذ، ما هذا الذي تلبسه زوجتك، والله ما إن رأيته حتى تمزقت أمعائي!

ثم أردف قائلاً: يا رجل، نحن في القرن العشرين، والناس قد صعدوا للقمر ـ وأنتم لا زلتم تصرون على هذا

الزي! وبهذه العقلية؟! عندها تساءل الزوج بلا مبالاة:

ـ ومن منعكم من الصعود للقمر، وقال له باستهانة:

ـ والله ما كنت أعلم أن إطالة ثياب زوجتي ستكون حائلاً بينكم وبين الصعود إلى القمر.

واحتدم النقاش...

قال المدير: أنا أعلم أنها جاءت بخطة مرسومة تريد فيها تغيير أفكار الطالبات ليلبسن مثلها... ثم قال بكل جلافة.

ـ ليكن بعلمك أنه لن يحصل ذلك وأنا موجود!

ثم بعد ذلك كله تطالب سلمى بنشاط ديني! إني أعتبره نشاطاً سياسياً محظوراً ولن يسكت عليه؟ قال ذلك وضرب بيده على المكتب أمامه.

لقد كان في غاية الحقد والغضب.

وأصدر أوامره للمديرة لتلغي النشاط الديني قبل أن يبدأ!

هدأت سلمى من انفعال زوجها وتأثره. فأمن على كلامها حين قالت له: لسنا نستغرب منه ذلك، وإنما الغريب أن يسكت هو وأمثاله، ويتعاونون مع أمثالنا!

وتناول الزوجان طعام الغداء... وبعد العصر كانت أفواج الطالبات تتوالى إلى منزل معلمتهن الأثيرة ـ يحدثنها

عن مخاوفهن من مقالب يعدها هذا الشرير ـ القزم ـ والتزمت الكثيرات منهن بالحجاب بعد هذا التصرف المجافي للدين والأدب.

زارتها معلمات من المدرسة كان فيهن طيبة ودماثة، فيهن كرم خلق وبقايا تدين موروث.

كن في غاية الأناقة والجمال. مع حسن التصرف والذوق السليم.

لم تشأ ـ سلمى ـ أن تقاطعهن لعدم التزامهن بالحجاب الشرعي، لأنها تعلم أنها لن تستطيع التأثير فيهن إلا إذا خالطتهن ونصحتهن.

ولطالما حدثت نفسها متألمة:

«ويح أهل الباطل، لقد طمسوا الحقائق عن أعين الأجيال، حتى الطيبة منها ـ إن الجهل الذي أرادوا أن يعم وينتشر هو الذي يجب أن يُمحى، فالجاهل يجب أن يعلم لا أن يقاطع أو يعنف» لقد كان بين ـ سلمى ـ وبينهن تزاور وأحاديث...

فلهن حق الجوار، ولهن حق الزمالة.... وقد توطدت الصلة بينهن منذ بدأت سلمى بزيارتهن. فأنسن بزميلتهن، وشعرن بأنهن بين ذويهن المقربات، ولقد نسين أنهن بعيدات عن أهلهن....

كن أربع مدرسات يسكن معاً:

أختان منهن تلبسان (حجاباً) يغطي نصف الشعر الخلفي (الإيشارب) ومدرستان سافرتان سفوراً كاملاً.

وفي إحدى الزيارات، دخلت الزميلة ـ هدى ـ مسرعة لغرفة الاستقبال، وفوجئت بوجود زميلتهن العزيزة ـ سلمى ـ إذ كانت بضيافة زميلاتها في السكن وضمن شقتهن...

وبعد أن سلمت عليها ورحبت بها، اشتكت من آلة الخياطة لأنها بدأت بعمل غطاء للسرير، ولكن عطلاً ما كان قد ألم (بالماكينة) يومذاك وعرقل إتمامه.

وعندما عرضت الزميلات عليها تأجيل الخياطة ريثما تعرض آلة الخياطة على المختص لإصلاحها، أبدت سلمى استعداداً لإصلاح الآلة...

وفعلاً، أصلحت سلمى آلة الخياطة، بين دهشة الجميع واستغرابهن، استغربن من معلمة الدين ذات اللباس الساتر، وكانت أصغرهن سناً... وما الغرابة؟!

لقد استكثرن يوم علمن أن المعلمة ـ سلمى ـ قد عملت دورة آلة كاتبة فأصبحت تجيد الضرب عليها...

وسألتها هدى، إن كانت قد عملت دورة خياطة أيضاً!

وعندما أجابت بالإيجاب، تناقلت المعلمات نظرات ممزوجة بالإعجاب والاستغراب.

أدركت ذلك ـ سلمى ـ فسألتهن والابتسامة الرقيقة تكسو محياها:

ـ ما الغرابة؟! أم لعل ما يشاع أن المحجبات أعداء للحضارة قد خامر أذهانكن؟!

ردت إحداهن على وجل:

ـ صدقت، يقولون: لو كان الأمر لكم ـ أنتم المتدينين ـ لما سمحتم حتى باستعمال الكهرباء ولا ركوب السيارات والطائرات! لكن سلمى ـ بددت عن أعينهن غشاوة الدعايات المضللة وهي تقول:

ـ ولم يا أخية؟! إن الكهرباء ما هي إلا إنتاج العقل البشري على مدى العصور، ومثلها السيارة والطائرة.

اهتدى العقل البشري إليها بتوفيق من الله. ونحن نستعملها فيما يرضي الله. أم يريدونها حكراً على أهل الكفر والضلال؟!

وعندما وجدت سلمى آذاناً صاغية وشغفاً لسماع المزيد، أردفت قائلة: إن الإسلام لا يحتقر المادة، ولا الإنتاج

المادي، فكل ما في الكون مسخر للإنسان. ولكن الإبداع المادي وحده دون عقيدة سليمة لا يسمى حضارة. . .

كانت المعلمة ـ هدى ـ أكثر زميلاتها جرأة، فقالت:

ـ معذرة يا أستاذة سلمى ـ ما دمت على هذا الانفتاح الفكري فلماذا تلبسين وأنت المثقفة، هذا اللباس السابغ الذي يصل الأرض ويغطي الوجه، فهو أشبه بلباس القرويات!؟

ابتسمت ـ سلمى ـ وأجابت برحابة صدر:

ـ إن الانفتاح الفكري لا يعني أن نأخذ الحضارة بقضها وقضيضها كما يقال. .

لا نأخذها بكل ما فيها من زيف، لا بد من الوعي الذي يبعد عنا الضلال. نتطلق بعقل متفتح لأخذ ما يناسبنا، ولا يتنافى مع مبادىء ديننا وصفاء عقيدتنا.

قالت إحدى الزميلات:

ـ إذن فتركه أولى لمن يريد الاحتياط والسلامة!

ردت سلمى:

ـ إننا إن وجدنا الاستعمال السيىء لمنتجات الحضارة، فلا يعني ذلك الإحجام عنها ومقاطعتها.

هل نترك استعمال السكين لقطع اللحم، لأن السكين تؤذي، ولأنها تستعمل للذبح؟!

وهل نترك استعمال الغاز لأن أنبوبة الغاز قد تنفجر؟!

لا يا أخواتي، إن الحضارة الإسلامية حضارة دينية علمية واعية، أنارت للكون الطرق، وأباح الشرع استعمال المعطيات المادية بشرط أن: «لا ضرر ولا ضرار».

معطيات الحضارة إرث عالمي ساهمنا في تقدمه، بعد أن سخرناه لعقيدتنا استفاد منه العالم كله. وها هم الآن يردون إلينا بعض الجميل. . .

وفي الزيارة التالية. . . وفي منزل سلمى ـ جاءت المعلمات الأربع وكن في نضرة الشباب وكامل الأناقة.

استقبلتهن سلمى وعلى محياها بشائر الخير، حدثتهن عن مدير التعليم وموقفه من حجابها، ونقاشه الساخن، وتحديه لزوجها. . .

كن جميعاً متعاطفات معها، ناقمات من تحديه الصارخ لتعاليم الدين، وشجعنها للتصدي لمحاولاته الشريرة، وأبدين استعداداً للتعاون ما استطعن لدعم المبادرات الخيرة.

أبدين ذلك رغم كل ما هن فيه من مخالفات. . . .

قالت المعلمة هدى: إنه خصم لدود! وقالت أخرى:

ـ هو دعي حاقد يحمل رسالة التخريب والضلال.

وعندما رأت استغراب زميلتها سلمى من تعليقها لا سيما وأنها ترى سفورها. . فقالت:

ـ ماذا يريدون؟ إن قيد الأغلال أهون من قيد العقول.

أم يريدون منا أن نفكر بعقولهم؟! ثم أردفت قائلة وقد بلغ بها الحماس غايته:

ـ هذه والله أمور لا يسكت عليها، ولا يرضاها عاقل، تصوروا أني لم أذق طعم النوم الليلة الماضية، من سوء ما سمعت. ففي نفوسنا نحن المسلمات آلام دفينة. . .

لقد أصبحت غرفة الإدارة، أصبح المكان الذي يتوقع أن يكون معقل العلم، أصبحت غرفة الإدارة مكاناً لرصد حركات الموظفين والموظفات. . . والمدير القزم، يملي إرادته على المديرة فيقول لها: «يجب إنفاذ ما أقول، وعدم التغاضي عن أي مخالفة!».

والمديرة كانت أمامه ضعيفة متهالكة، قالت له باستخذاء: «طبعاً، هل يتصور أن نقبل نحن مثل هذا؟!».

ومرت أيام. . . .

وبدت هدى ـ وهي تتخطى عتبة المدرسة بحجاب يغطي جميع شعرها بغطاء أبيض جميل، وتلبس معطفاً وإن لم يكن بالطويل تماماً، لكنه يميل إلى الطول والحشمة. . . إنها خطوة على الطريق.

كانت خطوة إيجابية خيرة من هدى، بعد السفور الكامل الذي كان يظهر الشعر والذراعين وجل الساقين... وكان ذلك عادياً في تلك الديار وبعض ديار المسلمين الأخرى مع الأسف.

وقابلت المتدينات حجاب ـ هدى ـ بالترحاب والسرور، وعبرن عن فرحتهن بكلمات المباركة والدعوات الطيبة.

وحينما سألتها المعلمة (رندة) وقد استهجنت ذلك التغير وقالت لها: خير خير يا هدى، ما هذا التطور العجيب؟!

أجابتها بتحد وتصميم: هذا رغم أنف المدير العلماني. وأمام ذلك الرد الجريء، ارتسمت على ملامح المعلمة رندة، علامات التعجب، ولكنها سرعان ما تلفتت حولها لتطمئن أن لا أحد من المخبرين يسمع كلام هدى!

أما هدى فقد تابعت تحكي قصتها مع الحجاب فقالت:

ـ لقد اعتدت من بداية العام الدراسي أن أحضر من بلدي للمدرسة كل يوم سبت، وذلك بعد الحصة الأولى، حيث جعلت تلك الحصة فارغة خصيصاً، مراعاة لظروفي، وليتسنى لي القدوم من بلدتي، وبنفس الوقت لا أتأخر عن واجبي في التدريس. وقد فوجئت في نهاية هذا الشهر بحسم أجرة يوم من راتبي! وحين سؤالي عن السبب قيل: اسألي مدير التعليم

بالمنطقة! وتساءلتُ: عجيب أمره، هذه أول مرة يتدخل في الراتب من هو في مكانته!

وأكملت هدى تحدث المعلمة رندة:

وعندما سألت مدير التعليم، فتصوري يا أخت رنده ماذا كان رده؟! لقد قال بالحرف الواحد:

ـ هـذا لتتعلمـي الـدفـاع عـن لبـاس المعلمـة ـ سلمـى ـ حملقت الزميلات وقد زاد استغرابهن فقالت هدى:

ـ لماذا تنظرن إليّ هكذا؟!

هذا حقيقة ما حصل، عندما كان يُرغي ويُزبد، وقد احتقن وجهه وهو يقول عن حجاب الأستاذة سلمى، قال:

ـ هذا لن يكون في عهدي، إما أنا أو هي في المدرسة!

ومن ثم قلت بنفسي: لقد آن الآوان يا هدى لتتكلمي كلمة حق، فقاطعته سائلة:

ـ يا أستاذ، لماذا تسكتون على من تلبس الميني جوب ـ إذن؟!

وما المانع من اللباس الساتر ما دامت المعلمة سلمى تقوم بعملها كاملاً؟

عندها امتقع لونه، وارتجفت شفتاه وهو يقول:

ـ يكفينا تأخرنا، نحن لا ينقص تأخرنا أمثالها...

وتوالت كلماتي صفعة لمن يحارب الله ورسوله:

ـ لم يكن التمسك بالدين عائقاً عن بلوغ أمهاتنا أعلى المراتب العلمية في عهدهن. لقد كن نابغات فقن الرجال في كثير من الحالات.

وتابعت هدى، وبكل جبروت حاول المدير إسكاتي فقال:

ـ لا نريد منك الدليل! لكني أكملت:

ـ يا سيادة المدير، لو قدر لنا السير في الشوارع فإننا نجد لافتات لمدارس تحمل اسم (عائشة وخوله وخديجة ونسيبة) وبصفتك مدير للتعليم، أليس ذلك يعني أنهن قدوة للأجيال؟!

قل لي بربك، كيف كان لباسهن الذي يلبسن وهن يسمعن قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ هل كان يستر الجسم أم كان يشبه أزياء هوليود وباريس؟!

فرد باستهتار: اسمعوا لهذه، نحن نتحدث عن فتاة العصر، وهي تتحدث عن الأيام الخوالي!

لقد كان الجدال يسير في طريق مسدود. فالمدير كان في هزيمة نفسية وشيطانه يؤزه للهدم. وهو لا يملك إلا الاستجابة لشيطانه المريد، فقال: دعينا من فلسفتك ومواعظك، فلسنا بحاجة إلى مشايخ جدد!

وأما هدى، فبإصرار المؤمنة تمتمت:

إن من الحمق أن نفرط بكنوزنا تقليداً لغيرنا، فقال لها وقد استشاط غضباً.

ـ قولي إنك تآمرت مع سلمى؛ ردت هدى وكأنها في قاعة المحكمة:

ـ لا والله ما تآمرت ولكني أشفقت على مبادئنا القيمة أن تذل وتدنس فأجابها بقسوة بالغة، ليوصد باب المناقشة، وينهي الجدال:

ـ كفى تلاعباً بالألفاظ، إني أمقت فضولك هذا، ابق على الحياد!

وعلى كل حال فإن لي ولك شأناً تكون فيه العبرة لكل متطفل، قال ذلك مهدداً لها.

لكن هدى كانت تفكر بصوت مسموع فقالت:

ـ يا سبحان الله، إنهم يريدون أن يصوروا المثقفة متبرجة تخالط الرجال وتتملص من تعاليم الدين.

وقد آن الآوان لكسر الحاجز النفسي الذي أقاموه بين المتدينات والثقافة. ولو كنا نحن المسلمات. لو كنا جميعاً على مستوى المسؤولية لما وجدت الطفيليات متنفساً. . .

قالت ذلك وهي تدفع عن نفسها مرارة الانفعال، كي لا

تدع مجالاً للشامتين. . .

لقد استيقظت الفطرة الإيمانية في قلب هدى النابض بالحياة، والمتطلع بشوق إلى حياة أفضل في جنة عرضها السموات والأرض.

لقد هزها الظلم الذي رأته أمامها، وأيقنت أنه لا يصح أن تغمض عينيها عن الخطر المحدق.

وبعد ليال لم تذق فيها طعم النوم. . . أشرقت نفسها فأبصرت الطريق وألهمت الصواب، فأضحت قريرة العين، طيبة النفس، منشرحة الصدر. . . وبعزيمة قوية عادت إلى ربها.

وأخواتها الصالحات يستقبلنها بحبور، يشددن من أزرها ويقلن لها:

ـ هوني عليك أختنا الحبيبة.

نحن جميعاً نهنئك من أعماق قلوبنا، بشرى لك أن شرح الله صدرك، ونما الإسلام في فؤادك.

وقرع الجرس مؤذناً بانتهاء الفسحة، واتجهت المعلمات إلى فصولهن ولسان حالهن يقول:

«حقاً إن الأزمة تلد الهمة».

لقد تحولت هدى فأصبحت فيما بعد داعية للإسلام. . . ولا زالت تواصل المسير.

(٤)

# الجلباب الأسير

في غرفة المدرسات الفسيحة، وأثناء الفسحة حيث كان الجميع بين هرج ومرج، وأكل وشرب، أو تصحيح للدفاتر المكدسة...

دخلت الطالبة (ريم) على وجل، واقتربت من المعلمة سلمى ثم أسرّت لها قائلة: يا أستاذة، المديرة أرسلت الآن في طلب «زينب» فهل ترين أن تذهب عندها أم لا؟

كانت «زينب» طالبة جادة، بعيدة عن الاهتمامات التافهة ـ من طالبات الصف الرابع في دار المعلمات... من طالبات السنة التي يتهيأن فيها للتخرج ومن ثم التعيين، وقد أهلن للتعليم في المدارس الابتدائية.

ويجري التعيين دون مقابلة للخريجات، أو مسابقة أو حتى طلب تعيين! وكانت (زينب) قد لبست الجلباب الساتر، لتصبح بذلك أول طالبة تلبسه في المدرسة، بعدما اعتادت الطالبات لبس الفستان القصير.

وحتى لا يكون زيها نشازاً، فقد عملته بنفس لون الزي الرسمي لطالبات المدرسة.

فرحت المتدينات بحجاب (زينب) واعتبرته بادرة خير.

وصممن أن يقلدنها في ذلك. لقد أردن أن يثبتن انتماءهن الحق للأمة التي يعتز الآباء والأجداد بأمجادها.

وكان من الواضح للجميع، أنهن أخوات متحابات، ألف بين قلوبهن الإيمان، وجمعت بينهن الغربة، غربة الإسلام، الذي بدأ غريباً وسيعود غريباً كما ذكر المصطفى ﷺ.

وقد وحدت بينهن المضايقة التي يجدنها ممن حولهن في المجتمع... وزرع التدين المحبة في قلوبهن، وشاع الود في نفوسهن.

فكن يداً واحدة يذدن عن بعضهن، ولا يقبلن كلمة في أي منهن.

وأصبح جلباب «زينب» رمزاً للستر والحياء والتدين. وأي أذى كان يمسه، وحتى النقد الذي يوجه إليه، يعتبر أذى يمس جميع المتدينات.

قالت المعلمة ـ سلمى ـ رداً على سؤال «ريم» ومشجعة لها:

ـ «فلتذهب زينب للمديرة، ولتكن على ما نعهده منها من أدب جم، وتصرف حسن، ولتمارس الدفاع عن نفسها، ولا تلق بالاً لما تجده من ضغوط». ثم أردفت مطمئنة لها:

ـ وأنا بدوري سأذهب الآن لغرفة الإدارة أيضاً، فمن كان ينوي الشر فنحن له بالمرصاد!

وفعلاً لبت (زينب) نداء المديرة. وتبعتها المعلمة ـ سلمى ـ بحجة السؤال عن رسائل جاءتها من أهلها. . .

ولقيت هناك ـ زينب ـ تقف فزعة أمام المديرة، وهي تحاول جهدها أن تتماسك، والمديرة تقول لها:

ـ كنت فخورة بك يا زينب، بأخلاقك وأدبك واجتهادك. كنت فخورة بانضباطك واستقامتك، فما هذا اللباس الذي تبتدعين؟!

عديني أن لا تعودي إلى هذا اللباس!

و«زينب» التي كانت بأمس الحاجة إلى الدعم المعنوي، تنفست الصعداء إذ دخلت المعلمة، فبقيت صامتة صامدة كالطود والمديرة تلح عليها بالأسئلة والتقريع:

ـ «ما بالك صامتة ـ يا زينب ـ قولي أعدك. . .

وكل ما هنالك أنني أحببت مساعدتك!» قالت ذلك ونظرت إليها باستجداء، لعلها تلبي الطلب وتنهي مشكلة متوقعة. . . فسألت المعلمة سلمى مستفسرة:

ـ خير إن شاء الله، ما بال «زينب».

ردت المديرة بحنق: يا أستاذة، هناك لباس رسمي

للمدرسة انظري ـ الطالبة فاتن ـ رغم أن أخاها مسؤول كبير في الحزب الحاكم، إلا أنني أرسلت لأخيها، وكلمته لألفت نظره إلى لباس أخته. كلمته لمجرد أنها خالفت مرة واحدة. . . ! إذ لبست الحذاء ذا الكعب العالي!

فلا يحق للطالبة مخالفة اللباس المدرسي.

«يا سبحان الله! أفي بلد الإسلام يقال هذا؟! ومتى كان اللباس القصير السيىء الأوصاف شرعاً يتبع؟!».

هذه تساؤلات ما جرؤت حتى المعلمة عن الافصاح بها ولكنها بقيت حبيسة في نفسها، وتلاحقها كلما تفكرت في واقعها المرير. . . وتجملت المعلمة ـ سلمى ـ بالصبر، والتفتت إلى زينب تشير عليها:

ـ إذن يا زينب البسي المعطف الساتر خارج المدرسة، في الطريق وفوق الزي المدرسي، حتى إذا دخلتها، تكونين مثل زميلاتك مع غطاء يستر الشعر، ولا يبدي منه شيئاً.

قالت المديرة:

ـ أنا لا أتحمل المسؤولية على مخالفتها هذه، ولا أتحمل مسؤولية السماح لها حتى ولو أن تخطو خطوة واحدة داخل المدرسة بلباسها المشؤوم هذا فالنظام يجب أن يحترم، والتعليمات أنفذها أنا وأنتم.

قالت ذلك، ووزعت نظراتها بين المعلمة سلمى والطالبة زينب. ثم عرضت المعلمة سلمى فكرة معقولة وهي:

أن تخلع (الجلباب) المعطف الواسع عند غرفة البواب، ومن ثم تدخل المدرسة. وانتهى النقاش عند هذا الحد. وفي ذهن المعلمة الكثير، ودت لو استرسلت معها:

- «وماذا يضير لباس الطالبة؟ وهل يؤثر ذلك في تحصيلها العلمي؟ أم أن ركب التحضر قد يتوقف من أجل لباس الستر والحشمة والحياء؟! لكنها اكتفت بأن شجعت زينب وأثنت على تفوقها، وشجعتها على الاستمرار على نشاطها الدؤوب.

وطمأنت المديرة بأنها لن ترى من زينب إلا كل ما يليق بطالبة مثالية.

* * *

... جاء مدير التعليم في المنطقة إلى مدرسة دار المعلمات، وكان من المألوف أن لا يزور المدارس إلا نادراً، ولأمر هام.

كانت الأخبار قد أقلقته: لقد انتقلت العدوى، وزاد الخطر، لقد تسممت أفكار الطالبات، إذ لبست طالبة منهن الجلباب.... وقلدت معلمتها، وسترت جسمها... يا للكارثة! يا للفاجعة!

وكان المدير يرقب الأحداث في قلق، ويعتبر لباس طالبة وسترها كارثة حلت بالمدرسة، وستجلب إليه لفت الأنظار....

أرسل مدير التعليم للصف الرابع، يستدعي الطالبة زينب للحضور لإدارة المدرسة.

وحضرت (زينب) تلبس المعطف السابغ الواسع الفضفاض. تجلله الهيبة والوقار، وقد تمثل فيه كل خفر الأنثى وحيائها.

ولا ريب أن كلاً من المديرة المتصابية، والمراقبة - سالي - التي كانت تستعرض شبابها، شعرتا بالضآلة والصغار أمام هيبة هذا الزي وجماله.

دخلت زينب تحييهن قائلة: «السلام عليكم».

هز المدير رأسه وقد استهجن هذه التحية، التي ما عهدها من النساء المثقفات اللاتي يتفاخرن بتحية الجاهلية، وأفضلها لديهن ما كان بلغة أوروبية. ثم بدأ يمن بما أسداه من خير إليها وإلى التعليم بأسره...

وكم عملت الدولة لأجل الجميع...! وكأن كل ما في المدرسة هو منح وهبها لهم المدير وأعوانه! ثم سألها مستنكراً:

ـ لماذا لا تلبسين مثل زميلاتك يا زينب؟!

كنت أسمع عنك دائماً أنك أكثر من ممتازة!

قالت له: وما الغرابة فيه يا أستاذ؟ أو لست مسلمة يأمرني ديني بالستر؟! فرد عليها باستهزاء:

ـ أأنت وحدك المسلمة؟ والطالبات غيرك أولسن مسلمات؟! ردت الطالبة بثبات: المسلمة لا تنجرف مع التيار، بل تقف في وجه السيل الأهوج.

المسلمة تنقاد لأمر ربها الذي يقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ . .

واحتدم النقاش... ثم هب واقفاً يشير بيده، مهدداً متوعداً:

ـ ليكن بعلمك أنني لن أوافق على تعيينك. أنا لست أميناً على الجيل الذي ستعلمينه ولن أسلمه لأمثالك!

فردت عليه وقد نفد صبرها إزاء استثارته:

ـ (بالناقص)[1] وكان رداً مفاجئاً ما عهده المدير ـ وهو الذي يرى حوله المتزلفين كحشرات تزحف حول المادة،

---

(١) كلمة عامية محلية يقصد منها الاستهانة واللامبالاة.

وتتهالك في سبيلها ـ وما عهد إلا الاستكانة والخضوع. . .

ورد عليها مهدداً: (بالناقص) من واحدة مثلك أسلمها الجيل، ويدأ يجمع أوراقه وهو يقول:

ـ أنت لا تعرفين من أنا! وسنرى ماذا يمكنك أن تعمليه!

كانت زينب تتوقع أن من في مثل منصبه يجب أن يتحلّى بالمرونة والتسامح والقدرة على الإصغاء، حتى ولو خالفها في المعتقد!

. . . عندها أعادت كلماته شجاعتها، وردت عليه مصححة له وقائلة:

ـ يا أستاذ، إن المرأة يجب أن توضع كما أرادها الله، لا كما أرادها الغرب في حرية مشؤومة، يا أستاذ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

هل تريدون من المدارس تخريج ممثلات إغراء كهؤلاء اللاتي يكشفن السيقان والنحور وكل ما أمر الله بستره؟

قالت ذلك، علّ المدير الأحمق يثوب إلى رشده، لكنه رد بكل غلظة: «ذاك أحسن من الأزياء الرجعية». . .

وتحول النقاش إلى مشادة كلامية، فقالت زينب:

ـ طبعاً، لأنهن أشبه بالبائع المتجول يعرض سلعته

الرخيصة! ولسان حالهن يقول: ألا تنظرون. . . إليكم هذا الجمال!؟

لكن المدير أسكتها بقوله: اصمتي ولا تقاطعيني، والتزمي الأدب! سكتت زينب على مضض وقالت بنفسها:

«والله لولا أنك مدير التعليم لكان لي ولك شأن آخر!».

وتابع المدير كلامه مستفسراً:

ـ أتريدون أن نعمل مثل المدير ـ شاهين ـ لقد قص المعطف الطويل لتعود الطالبة إلى بيتها بتلك الصورة المضحكة؟؟

ثم غير لهجته فجأة، وبدأ يمنيها قائلاً:

ـ ما كنت أظن يا زينب أنك متمسكة بزيك إلى هذه الدرجة!

فإن شئت أعطيتك مهلة للتفكير، فلا تتسرعي، ولا تضيعي مستقبلك!

تذكرت زينب نصائح معلمتها سلمى: «يجب أن نصون شرفنا وكرامتنا يجب أن نعمل بتعاليم ديننا وندافع عنها مهما كلف الأمر». فقالت له: لا، لا أريد أي مهلة. .

إنها الإجابة الحاسمة وليس غيرها. فلا مجال للتعدي على حقوق الله، والله لن أترك الستر ولو قتلتموني!

وإزاء إصرارها، أسقط في يد المدير وقد شعر أن الزمام قد أفلت من يده فنهرها:

ـ هل تتحدينني؟! وتتطاولين على القوانين؟!

أإلى هذه الدرجة تتمسكين برجعيتك؟!

ولم يكن النقاش متكافئاً، فقالت الطالبة زينب، وقد هددها المدير الأحمق باستعمال نفوذه قالت له:

ـ آخذ بحقي منك عند رب العباد. عند العادل شديد العقاب. وثق أنه لا بد أن يكشف الله الغمة، ولا بد لليل أن ينجلي، ولا بد للقيد أن ينكسر!

والتزمت زينب بجلبابها أثناء سيرها في طريقها للمدرسة ذهاباً وإياباً. وكانت تخلعه داخل المدرسة. ومن ثم تضعه في دولاب الفصل، حتى إذا انتهى الدوام، تأخذه بيدها لتلبسه عند باب المدرسة قبل الخروج منها....

وبدأت الطالبات يتناوبن حراسة الجلباب أثناء حصة العلوم، عندما يذهب الجميع إلى المعمل، وكذلك في حصص التربية النسوية عندما يذهبن إلى المطبخ... حرصاً على الجلباب من أن تسطو عليه إحدى الحاقدات من أعوان الإدارة.

كن جميعاً متوثبات، حذرا من أن تتعرض له سفيهة بأذى..

وذات يوم، بينما كانت الطالبات يسرن باتجاه الفصول، كان أمامهن، على الجدار، لوحة علقت إضافة إلى ما كتب في لوحة الإعلانات، وقد كتب عليها:

«يمنع منعاً باتاً أي لباس يخالف اللباس الرسمي. وكل طالبة تخالف ذلك تعرض نفسها للفصل من المدرسة».

ها هو كلام المديرة قد تحول، فأصبح حقيقة واقعة، يوم قالت: «النظام نظام، داخل المدرسة وخارجها... ويحظر على الطالبات هذا اللباس (الساتر) مطلقاً».

لكن ـ زينب ـ استمرت على إصرارها على الحق الذي تؤمن به... وبقيت زميلاتها وأخواتها الطالبات يحرسن الجلباب، رمز الكرامة لكل متدينة في المدرسة، وكثيرات منهن كن ينتهزن الفرصة لإقناع أسرهن ليقلدن زينب ويلبسن اللباس الشرعي، إلا أنه قد عم البلاء، واشتد الإيذاء...

حتى البواب العجوز، لم يسلم من شرورهم... فأرسلت المديرة تستدعيه وتتهمه أنه يتعاون مع زينب حيث يدعها تتخطى عتبة باب المدرسة بزيها الممنوع...

إنه يساعدها إذ يسمح لها أن تخطو به خطوات ريثما تتخلى عنه... ومن ثم تلبسه عند العودة في طريقها إلى البيت...

قالت المديرة للبواب: اصدقني القول، هل تدخل زينب باب المدرسة بزيها؟!

لقد باغته السؤال، فما هو الذنب الذي اقترفته زينب؟! فقال:

ـ إني أغلقت باب غرفتي في الأيام الماضية، وهذا كل ما يمكنني عمله ـ فهل أغلق باب المدرسة أيضاً؟!

أنا على استعداد لفعل ما تريدين، ولو بإغلاق المدرسة إذا كان ذلك يرضيكم، ويتمشى مع التعليمات!

لكن يا أستاذة، ما ضركم لو لبست طالبة واحدة بل حتى كل الطالبات لو لبسن مثلها..؟!

ثم غير البواب لهجته، وقال بأسلوب أبوي:

ـ يا أستاذة، إن التهارش والتناحر أفضل خدمة نقدمها لأعدائنا فلماذا لا نتعاون على الخير؟!

أسكتته المديرة، وأنبته بقولها:

ـ إننا لا نريد أن نتعلم منك، فلك حدود يجب أن لا تتعداها. عليك أن تنفذ التعليمات ولا تجادل!

* * *

وفي كل مرة، وعند مساءلة البواب، كانت هنالك متربصة

تجلس، هي المراقبة سالي، تجلس بكامل زينتها، تمسك القلم وتخط بسعادة ما تسمعه من أقوال. . .

كانت كالطفل الذي يفرح كلما سمعت ما يدين زينب أو البواب من مخالفات. . . وكان أكثر ما يخشاه البواب الطيب، أن تقدم (سالي) معلومات مزيفة تتقرب بها إلى مدير التعليم.

وفي ظهر أحد الأيام. . . وأثناء تناول طعام الغداء، قرع باب منزل المعلمة (سلمى)، وكان الطارق زميلتها ـ رحاب ـ معلمة التاريخ في المدرسة وجارتها في المنزل.

كانت «رحاب» تبدو مضطربة خائفة، جاءت ترتجف أوصالها لتسر خبراً لزميلتها المحبوبة (سلمى) عسى أن تأخذ حذرها. . . . كانت «رحاب» تعتبر ما حصل في ذلك اليوم مؤشر خطر سيعم المتدينات جميعاً ولا سيما المعلمة ـ سلمى ـ.

دخلت حجرة الجلوس وأغلقت الباب بهدوء، وكانت تتلفت وكأنها تخاف أن تلقى شيئاً مريباً، وذلك خشية أن يلمحها أحد، ثم قالت: أني على ثقة أنك ستبقين زيارتي هذه سراً.

وبعد أن اطمأنت أردفت قائلة:

ـ في هذا اليوم ـ الخميس ـ كان للصف الرابع كما تعلمين

حصة تزيد عن بقية حصص المدرسة، وكانت تلك الحصة حسب توزيع الجدول هي ـ تاريخ ـ ورغبة في التمتع بالجو البديع في فصل الربيع الجميل...

طلبت الطالبات أن تكون الحصة في حديقة المدرسة وعلى بساطها العشبي النضير... وهذا طلب عادي يحصل منهن كثيراً.. ثم أكملت قائلة:

حملت الطالبات حقائبهن وأمتعتهن، لأنها الحصة الأخيرة في ذلك اليوم. وليكون الانصراف من الحديقة للبيت، ودون العودة ثانية إلى الفصل.

وأخذت (زينب) معها الجلباب واحتضنته أثناء الدرس، ووضعت حقيبة كتبها إلى جانبها. وخلال الدرس، حضرت المراقبة ـ سالي ـ وكما يعلم الجميع أن العلاقة قد توطدت بين المدير الخبيث وبين المراقبة الجميلة الشابة... وأصبح همها الدائم هو إرضاء المدير. لتحظى بإعجابه. فضلاً عن عطاياه، من مكافآت أو حتى عواطف...

وتابعت المعلمة رحاب قولها:

لقد استأذنت (سالي) لأسمح للطالبة ـ زينب ـ بالخروج معها من الحصة لبضع دقائق، وفعلاً لقد أودعت «زينب» جلبابها عند زميلتها الأمينة ثم ذهبت مع (سالي) ووقفتا معاً: المراقبة سالي، والطالبة زينب وقفتا في ركن من حديقة

المدرسة، والطالبات يسترقن النظر إليهما، وهما تتحدثان. . .

وبعد فترة، عادت (زينب) واحتضنت جلبابها ثانية، وقد استعادته من زميلتها الأمينة. . .

ثم لا ندري لماذا تكررت عودة المراقبة (سالي) عادت ثانية وثالثة. . . وفي كل مرة تقطع الحصة. . . وكأن شيئاً كان يدور في ذهنها، ولعل اضطراباً وصراعاً كان يخالج نفسها.

ثم عادت المراقبة (سالي)، وأمام دهشة الطالبات، واستنكار المعلمة عادت سالي، وبدون استئذان من المعلمة ـ رحاب ـ واقتربت من الطالبات، كاللص الغادر، ثم مدت يدها إلى حجر زينب وتدافعت معها إلى أن سلبت منها الجلباب ثم ذهبت. . .

قالت المعلمة رحاب: ولا تتصورين يا أختي موقف الطالبات الكئيب لقد كن جميعاً في مأتم إذ افتقدن الجلباب. حتى السافرات منهن، لقد رمين بالكتب على الأرض، ومن ثم أجهشن في بكاء مر حزين.

ساد الوجوم برهة بين المعلمتين سلمى ورحاب، والدموع الحرى تنهمر من عينيهما، وسلمى تقول: قاتلهم الله!

ثم سألت، وكيف عادت زينب إلى بيتها، بعد أن سعوا لهتك أستار حرصت صاحباتها على سترها؟! وردت المعلمة رحاب:

ـ ماذا ستفعل؟! بل ماذا بإمكاننا أن نعمل ونحن كالطير المهيض الجناح لا حول لنا ولا قوة؟!

أما زميلاتها المتدينات فكل ما أمكن أن يعملنه: أنهن أحطن بها، باكيات حزينات، متوعدات للغادرة ـ سالي ـ حانقات عليها. يذرفن الدمع على الحال المهين الذي وصلن إليه. ويمطرنها بوابل من الدعاء المشؤوم عليها وعلى كل من يساندها...

وفي اليوم التالي، كانت خطبة الجمعة حول لباس المسلمة ووجوب سترها، وحكم الشرع فيمن يخالف ذلك... كانت الخطبة موجهة لتوعية المصلين، ولكن المدير الفاجر وعصابته قد تجاوزوا كل القيم...

ومضى يوم الجمعة، والبلد بأسرها تتحدث عن هذه السابقة الخطيرة، فلم يلبث أهل الصلاح أن سروا برؤيتهم المثقفة وهي تستر جسمها، وتخالف المغضوب عليهم وأهل الضلال، بلباسها السابغ، حتى جاء اللصوص فقضوا على فرحتهم، بسرقتهم لجلباب (زينب).

وفي يوم السبت، لم تشأ الطالبة المجدة ـ زينب ـ أن تتغيب عن المدرسة. لقد داومت ولكن بلباس القرويات من أهل تلك المنطقة، لقد ارتضت لنفسها ذلك اللباس ما دام ساتراً.

فهل يسرقونه حتى من القرويات؟!

وشقت زينب طريقها للمدرسة بكل ثبات، بين استهجان المارة واستغراب الزميلات. إذ رأوا منظراً ما ألفوه من قبل.

وإزاء حماس أهل البلدة، ذهب مفتي البلد مع والد الطالبة ـ زينب ـ لمقابلة مدير التعليم، رأس التخريب ومدبر المكائد. وذلك ليبدوا استياءهم ويعبروا عن إصرارهم على ستر بناتهم.

لم يشأ المفتي أن يأخذ موعداً لأمر هو فوق المواعيد كما كان يقول. ذهبا يوم السبت في بداية الدوام، وانتظر قليلاً... وعندما لم يأت المدير، غابا ثم عادا قبل نهاية الدوام...

إلا أن المدير لم يأت مطلقاً في ذلك اليوم، وعلى غير عادته...

وحيث أنه لم يكن قد تقدم بتقرير طبي، أو أي عذر ليتغيب...

فقد عاودا الحضور... عاد كل من والد زينب وبرفقته مفتي البلد بغية مقابلة المدير الفاجر، وإبداء استياء أهل البلد عموماً...

وعندما عاد المدير اللئيم، تنمر وقال: هذه تعليمات رؤسائه...! وها هم لا يملكون حتى الشكوى..!!

كان يتكلم بكلام أشبه بفحيح الأفاعي، ومن ثم هدد بعدم الموافقة على تعيين الطالبة زينب للتدريس، لأنها لا تؤتمن على تربية الأجيال الصاعدة إذا استمرت في لباسها الجلباب. . . . !!

لقد كانت بداية خطيرة في بلاد محافظة. فعاد المفتي رغم ما به من ضيق مكتوم، يسمع والدها كلمات الصبر والمواساة فيقول:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠ ﴾ ثم يقول: «صبراً، صبراً، فإن الأمر إذا ضاق اتسع».

## (٥)

# «فحيح الأفاعي»

«دكتور طنوس» كان أستاذاً للتربية وعلم النفس في المدرسة. أشيب الرأس نحيلاً معروق الوجه، بادي العظام، لا يهتم كثيراً بمظهره، تقول عنه طالبات المدرسة: هو إنسان مسخ قرداً، أو قرد في زي إنسان، رغم ما يدعيه من عبقرية، وما يتكلفه من تحذلق. لكن ولله في خلقه شؤون؛ فكم من خبايا النفوس تترجمها قسمات الوجوه؟!

كان يأتي إلى المدرسة ليعطي فيها بعض الحصص بلا راتب! نعم كان يعمل مجاناً في هذه المدرسة...

ولا غرابة أن يكون عمله في هذه المدرسة التي تؤهل المعلمات، وكبرى مدارس البلد، دون مقابل... يخدم هدفاً شريراً، وغرضاً حاقداً...

ذلك أن المعلم يأخذ أجراً إضافياً بحدود ربع الراتب لما يدرسه من حصص إضافية تزيد عن نصابه. وأما ما زاد عن ربع الراتب فيعتبر دون أجر.

وهكذا كان د. طنوس يتبرع بالتدريس المجاني، إذ يأتي

من بلدته حاملاً حاجاته الشخصية في حقيبته، وما إن يفتحها حتى تظهر منشفته إلى جوار دفاتره المبعثرة.

وقد تسقط فرشاة الأسنان، وقد يقع المعجون فيلتقطه الدكتور ليضعه إلى جانب الأقلام والأدوات الأخرى... كان يسر في تعليم البنات، ويجد متعة في بث ما يريد. فيتعمد اختصاصهن بالتدريس، ويدعي أنهن يتفوقن على الأولاد ويقول:

- أما الطلاب فخسارة التعب معهم. هم رعاع لا يستأهلون الثقافة.

أما البنات فالعلم يرسخ في أذهانهن، ولديهن استعداد قوي لطلب العلم! ويمدح الطالبات بأنهن أمهات المستقبل، مربيات الأجيال. هن اللواتي سيحطمن آثار الماضي الرث، وتقاليده البالية!!

لقد كان صاحب رسالة خبيثة يريد إيصالها، معتمداً على أقرب السبل.

دخل د. طنوس (الصف الثاني) وكانت حصة التربية تلك بعد حصة الدين.. فوجد السبورة قد ملئت بالملخص السبوري حول الميراث وتصريفه، وحكمة مشروعيته... فوقفت إحدى الطالبات وأمسكت الممحاة لمحو السبورة -

كالعادة ـ ليتسنى للدكتور استعمالها في درسه.

لكنه التفت إلى السبورة ثم أشار بيده قائلاً:

اتركيها كما هي! لا تمسحيها.. ثم بدأ ينفث سمومه:

ـ نحن يجب أن ننهي كل ذلك ونلغيه!

ـ لا ضرورة للميراث بعد الآن!

ـ أما زالت هذه الأفكار البالية تلقي شباكها عليكن؟؟! يا للخسارة! واستمر في بث أفكاره الجهنمية...

كانت الطالبة «فائقة» نبيهة وذكية، وذات شخصية طيبة، ولها تميزها الملحوظ في الصف لاجتهادها، وسعيها الدؤوب للوصول إلى الحقائق.. ومن ثم طمس الأكاذيب. فاستأذنت وقالت بكل أدب:

ـ أتسمح يا أستاذ؟! فالتفت مندهشاً وسأل:

ـ وماذا هناك؟ قالت:

ـ هل تأذن أن أطرح فكرة حول الموضوع؟! ففرح الدكتور لأنها ستتاح له فرصة الحوار، التي كثيراً ما يكون متحفزاً لها، متوثباً لاقتناصها. عسى أن تكون له الغلبة والإغواء... فلا عليه إن ضاعت حصة التربية المقررة، فها هي فرصة الهدم قد لاحت، فلينتهزها!

رحب الدكتور باستئذان الطالبة ـ فائقة ـ فقالت:

ـ إن نظام الميراث يا أستاذ، هو النظام المثالي الذي يتناسق مع الفطرة البشرية، فهو يمنع تكديس الثروة في يد واحدة. وذلك بتوزيعها توزيعاً يناسب قرابة كل شخص. وبذلك تستقيم الأخلاق، وتزكو النفوس. فلا جسد ولا حقد مع تمكين العدالة الاجتماعية. وأي مجتمع عندما يتطهر من سطوة الظلم الاجتماعي يصبح بكل تأكيد مجتمعاً متحاباً متماسكاً. تسوده روح التعاون والألفة. وبذلك تضمن سعادة الجميع، بعيداً عن الأحقاد والتباغض.

قال د. طنوس بخبث: نحن نوزع الثروة بالتساوي.

لكن فائقة، ردت بثبات: إذن يترك الناس العمل! أو يبددون ثروتهم في حياتهم!

سألها د. طنوس وهو يتظاهر بالموضوعية: وكيف ذلك؟!

ردت الطالبة «فائقة»:

ـ يا أستاذ، لماذا سيعملون إذا كانوا سيأخذون نصيباً كغيرهم من العاطلين؟! وكيف سيعمل من لا يجد حافزاً للعمل؟!

ولمن سيوفر إذا كان لن يستفيد أحبته المقربون له من أمواله؟! جاهد الدكتور نفسه ليخفي اضطرابه، ثم قال:

ـ يعمل ويعيش لقاء تعبه!

ألا يكفي ذلك يا فيلسوفة؟! ونظر إليها نظرة توبيخية.

وبحصافة وذكاء أجابت الطالبة:

ـ يا أستاذ ما ظنك بالعامل المسكين الذي يكدح في عمله الشاق، ويجالد في أسوأ الظروف ليجمع دريهمات....

هل من الدفاع عنه وعن أمثاله من العمال، أن يؤخذ ما وفره العامل ليوزع على غيره، كما تريد النظم الماركسية؟! وأي دافع له للإخلاص في العمل؟

إن النظام الإسلامي يوفر السعادة لأبنائه، فقد أمرنا أن نعطي الأجير أجره قبل أن يجف عرقه... ويرعى الكسب حتى بعد الموت. ويستفيد من كسب الإنسان ورثته المقربون بعد موته.. أين يوجد مثل هذا العدل الإلهي يا دكتور طنوس؟!

فرحت الطالبات المتدينات إذ نسفت أختهن ـ فائقة ـ دعاوى الأستاذ الدائمة في الدفاع عن العمال.. فازداد حنقاً وأسكتها مهدداً:

ـ في المرات القادمة، إياك أن تتنفسي بكلمة واحدة عن هذه السخافات!

وصار صوته جافاً، ونظراته قاسية وهو يفرغ جام غضبه بقوله:

ـ علـى الأقـل سيـرتـاح المجتمـع مـن رؤيـة الأيـدي المقطوعة!

وما درى الخبيث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أوقف حد السرقة عام الرمادة ـ عام المجاعة ـ وذلك لمظنة الحاجة . . .

أما إذا اكتفى الناس فلا عذر لهم في التعدي على أموال الآخرين. وفتح الدكتور حقيبته، وتناول منها بعض الحبوب المهدئة . . . وبروح عدائية كان لا يكف عن جرح مشاعر المسلمات:

ـ هل تقطع ألوف الأيدي ليكثر (الشحاذون) المتسولون؟!

وكان من الواضح أنه يستدرج الطالبات ليستثير غضبهن . . وكانت ثلة من الطالبات تدرك أن النقاش الهادىء له فعالية تفوق الانفعال.

فقدمت له إحداهن صفحة من جريدة، كانت أحضرتها وسيلة إيضاح لحصة اللغة العربية . . .

أمسكها الدكتور، وبدأ يقرأ فيها: «إن السارقين هم نتاج مجتمع يسمح بوجود الجائعين والمحتاجين دون أن يقدم لهم حل لمشكلاتهم. ثم إذا ربينا الناس على الإيمان، وهيأنا لهم العمل الكريم، وأخذوا حصصهم من الميراث من أقاربهم . .

وشعروا بالعدالة... فإذا طبقنا النظام الإسلامي لن نجد من يقدم على السرقة وقلبه عامر بالإيمان.

أما الذين يعيشون حياة تعيسة، وقد عضهم الجوع بنابه فلا يجدون من يرحمهم أو يفكر في أحوالهم... فأمثالهم قد ينقم على المجتمع. وإن لم يكن عنده الوازع الديني... فقد يقدم على السرقة.

وقد قيل في قطع يد السارق: (كانت ثمينة لما كانت أمينة. فلما خانت هانت).

كان د. طنوس يقرأ وهو يمسك الجريدة بيد، ويضع اليد الأخرى في جيبه. وعند هذا الحد أمسك بها ووضعها جانباً، ثم رفع رأسه متحدياً وهو يقول:

ـ وماذا سيبقى وراء رجل عنده أربع زوجات، ولكل زوجة منهن عدد من الأولاد؟

ماذا سيبقى بعد من عنده كتيبة وطابور عسكر؟! قال ذلك وأتبعه بضحكة ساخرة سمجة.

أحست الطالبة ـ فاطمة ـ بأن الأستاذ يغمز في الدين ويتطاول على إباحة الإسلام لتعدد الزوجات. فقالت في نفسها:

ـ ما لهذا المأفون لا يكل ولا يمل؟! يتتبع الشبهات، ويتصيد وسائل الزيغ. والضلالات ليصرف الناس عن درب الهدى والرشاد. لقد اجتمعت لديه أحقاده اليسارية والصليبية ضد تعاليم الدين. فهو يعمل كل جهده لتضليل الأجيال، وتشويه معالم الدين الحق... لكن خسيء وخاب...

رفعت فاطمة يدها واستأذنت بالكلام، فأذن لها. وكان من عادته، أن الطالبة التي تتولى الإجابة تأتي أمام الفصل، لتذكر إجابتها على مرأى من الطالبات عموماً.

جاءت فاطمة، يجللها الحياء. وبكل وضوح ورغم رعشة صوتها... بدأت تفند مزاعم الدكتور وتبين حكمة التعدد قالت:

ـ أولاً يا أستاذ، من المعروف أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال. وأنت كما نعلم تؤمن بالإحصاء وتحترمه.

ثم إن المألوف أن الطعان والنزال من شيم الرجال. فلو اجتاحت الحرب العديد من الرجال، واكتفى كل رجل بامرأة، فمن يعيل بقية النسوة؟! ومن يشرف عليهن؟ ومن يتول أمورهن؟!

لكن الدكتور الماكر رد بقوله: ها قد تعقدت المسألة! ثم أردف بخبث: ـ إذن كلهم متزوجون أكثر من واحدة لإعالة

النساء!! عمل خيري، أليس كذلك؟! قالت فاطمة وقد أحست بالإهانة لها ولدينها.

ـ لن أقول عن أنبياء الله السابقين، وتعدد الزوجات عندهم. لئلا تقول أن ذلك كان سابقاً، وفي العصور القديمة. لكن، في عصرنا الحاضر، وفي المجتمعات التي لا تبيح التعدد، إننا نجدها تبيح. . . وترددت الطالبة الحيية (فاطمة) قليلاً، ثم أمسكت بالطباشير، وبيد مرتجفة غالبت حياءها، وكتبت على السبورة وبخط كبير! «إنه الزنى في بلاد الغرب النصرانية» لقد منعها حياؤها حتى من لفظ الكلمة الشوهاء.

والتفتت لزميلاتها وقد تصبب العرق من جبينها، واحمر وجهها خجلاً وهن يقلن:

ـ صدقتِ، صدقت.

ولم يكن الدكتور بعد تلك المناقشة الحادة في موقف يحسد عليه. لقد بهت الدكتور طنوس الحاقد!

قرع الجرس وانتهت الحصة، وخرج د. طنوس حاملاً حقيبته تحت إبطه، لقد كان لصاً غادراً مهما بدا مستأسداً. وأي لصوصية أكثر من سرقة العقائد، وتشويه المباديء؟! إنه لص مهزوم، مهما جاهد ليخفي غيظه بتهديده للطالبات:

ـ «الجواب العملي هو ما ستجدنه مستقبلاً».

والطالبات الواعيات يرددن كلام معلمتهن سلمى:

ـ يجب أن نثوب إلى رشدنا، ونفيق من غفلتنا. يجب ألا نستورد الحلول من الشرق والغرب كما نستورد الثلاجات والغسالات.

علينا أن نفرق بين التكنولوجيا النافعة، والفلسفة التي تقبع خلفها!!

وحتى زميلاته في الدين من النصارى، أظهرن امتعاضاً من إضاعة الحصة، والتدخل فيما لا يعني، وإثارة الإحن بلا مبرر...

وأما الطالبة المؤمنة ـ فاطمة ـ فقد جاءها الفرج بانتهاء الحصة. لأنها قد كتبت الكلمة (الزنى) وقدماها لا تحتملانها من فرط الانفعال.

فسارعت إلى مكانها، ووضعت رأسها على المنضدة أمامها. وأجهشت في بكاء مرير...

التفت الزميلات حولها يخففن عنها ويقلن لها:

ـ لا تهمك أفكاره الحاقدة وأراجيفه البالية... لقد بهت الصليبي الحاقد...

حقاً إن التعدد مع العدل هو من تعاليم الإسلام. التعدد المشروع، لا تعدد الخدينات، وهو ما يناسب الفطرة، وفيه صلاح المجتمع. دعيه يتقلب في جحيم الغيظ ونار الحيرة..!

وقالت أخرى:

ـ ما للأستاذ النصراني ولنا نحن المسلمات؟ لماذا يتعرض لعقائدنا ونحن على الحق، ولا نتعرض لتثليثه وهو على الباطل؟!

قالت ذلك وهي تتلفت حولها خشية أن تسمعها إحدى المخبرات في الفصل... وعميلات الإدارة وطنوس...

حملت الطالبات حقائبهن، وهن يهتفن بقلب واحد، وبروح واحدة وبتصميم واحد.

«علينا أن لا نيأس ولا نستسلم أمام العدو الماكر مهما كانت قوته».

على كل مسلم ومسلمة أن يجاهد في ميدانه. فالكلمة جهاد، والدعوة إلى دين الله جهاد، ورد شبهات الضالين جهاد، ودحض فحيح الأفاعي جهاد. والعاقبة للمتقين.

## (٦)

# «طوبى للغرباء»

في صباح يوم من أيام الشتاء الباردة، وقد تلبدت السماء بالغيوم، كان الثلج يتساقط كالقطن المندوف، فغمر الأرض ليغطيها بلونه الأبيض البديع.

وكان ذلك اليوم هو أول أيام شهر رمضان المبارك، شهر الرحمة والمغفرة، شهر القرآن والاطمئنان عند عباد الله المؤمنين. . .

وصلت المعلمة (سلمى) إلى المدرسة، وعندما اقتربت من الباب الداخلي، وأرادت أن تغلق مظلتها، تقدمت بعض الطالبات نحوها، وتسابقن لإغلاق المظلة احتراماً لمعلمتهن.

أما زميلاتها من المعلمات، فكن يتجمعن عند باب المدرسة، ومعهن بعض الطالبات يتقاذفن كرات من الثلج وهن ضاحكات مستبشرات مسرورات. . فتساقطت بعض الكرات على المعلمة «سلمى» فازددن فرحاً ومرحاً وسروراً.

لقد كانت «سلمى» تحظى بالتقدير والاحترام من الجميع. فالكل في قرارة نفوسهن يقدرنها، حتى أولئك اللاتي يختلفن

معها في الرأي، كن يعترفن بفضلها وكريم شمائلها.

أما معلمة الدين النصراني في المدرسة (شاهة) فهي بعينيها القاسيتين الغامضتين، تبدو وكأنها في تحفز دائم...

كانت متحفزة لانتهاز كل حصة تغيب معلمتها، لتتبرع وتدخل الفصل بدلاً منها... هذا شأنها دائماً...

وكان من المعلمات المتغيبات في ذلك اليوم ـ المعلمة رندة ـ معلمة الصف الثاني.

دخلت المعلمة ـ شاهة ـ الصف بدلاً من معلمته الغائبة.

وجلست تتبادل أطراف الحديث مع بعض الطالبات المقربات لها، أو بالأحرى المتقربات إليها.

كانت تبلغ رسالتها دون كلل أو ملل... تشيع الدسائس، وتنشر الشبهات... ومما قالته:

ـ «لقد رأينا ماذا عملت المحجبات!» وكانت في قولها ذاك تغمز في معلمة سابقة، كانت تلك المعلمة محجبة، ثم أتبعت «شاهة» قولها بضحكة استفزازية...

ومن حكاية تلك المعلمة المحجبة، أنها كانت قد خطبت لأستاذ متدين، وكان له زوجة شريرة.

وعندما سمعت زوجته تلك بخطبة زوجها... لم تحتمل

الخبر، فسارعت إلى (الكاز) وسكبته على ثيابها، وأشعلت النار محاولة الانتحار والتخلص من الحياة بإحراق نفسها. . .

وأسعفت الزوجة، بعد أن حملت من العاهات ما كانت عنه غنية. . .

ـ تجاوبت بعض الطالبات مع المعلمة (شاهة) فقالت إحداهن:

ـ «صحيح، وهل الدين بالحجاب، الدين بالقلب!».

وردت ثانية، وكأنها تخفف من وطأة الكلام عن المعلمة المحجبة:

ـ «لكل جواد كبوة!» وقالت ثالثة:

ـ «ما الخطأ؟ وما ذنب المعلمة المحجبة إذا كانت الزوجة الأولى هي التي أحرقت نفسها؟!».

وأخرى تمتمت: يا فتاح يا عليم، ما لنا وللتفكه في أعراض الناس؟!

. . . وفي المقاعد الأخيرة، جلست ثلة مختارة من الطالبات، كن ناقمات على هذه المعلمة (النصرانية شاهة) وعلى كل من تتجاوب معها من الطالبات.

فقالت إحداهن: هذه من بقايا الاستعمار البغيض!

وتتجاوب معها أخرى فتقول بمرارة: «إنها تحاول وصم المتدينة بسيىء الأوصاف، ورمي البريئة الطاهرة بشتى التهم، لتشويه سمعة المتدينين. . .».

وبين الحين والآخر، كانت المعلمة «شاهة» تسترق النظر إلى الطالبات في المقاعد الأخيرة، لكنها اختصت المقاعد الأولى بأصوات فحيح مسموم، اعتدن على سماعها في الفترة الأخيرة من «شاهة» عندما قالت:

ـ هـذه حقـارة وغبـاوة مـن «المتلفلفـات» تعنـي بـذلـك المحجبات، أفحمتها الطالبة (سونيا) النصرانية بقولها:

ـ إن شئت الحقيقة يا أستاذة، فلقد خالطت الكثيرات منهن سواء في البيت أو المدرسة، فلم يكن حقيرات ولم يكن غبيات. لقد جلست معهن وزرتهن، بل وأحببت كثيراً منهن، وجدتهن في غاية الذوق، مفعمات بالفضائل، يكرهن الحقارة وصغائر الأعمال.

وجدتهن يتعاملن بلطف ورقة وحنان، تسودهن المحبة والمودة. . . نظرت إليها المعلمة (شاهة) بشزر، وردت عليها برد مقتضب:

ـ «ماذا دهاك يا سونيا؟! الحب أعمى يا سونيا، الحب جعلها تزل!».

وطالبات المقاعد الأخيرة يتهامسن عن كلام «شاهه»:

ـ «إن كلامها هذا له عقوبة رادعة قررتها الشريعة!».

ويُشرن بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1].

أما المعلمة (شاهة) فقد تابعت حديثها، من خلال ضحكاتها المفتعلة وهي تنفث السموم، فسألت:

ـ ما رأيكن بحفلة الأمس؟!

ألم تكن أمسية جميلة في المدرسة؟! حبذا لو تتكرر... لقد ذكرتهن بحفلة المدرسة، بل حفلة البلد بأسرها. إذ دعت المدرسة إليها كبار الشخصيات في البلد جميعها، رجالاً ونساء...

وكانت سهرة ماجنة، فيها غناء ورقص وطرب... حفلة قاطعتها المعلمة (سلمى) ولم تحضر إليها. وحين سأل مدير التعليم ـ وهو في غاية الغيظ والغضب: «أين المعلمة سلمى»؟ لماذا لم تحضر الحفلة كزميلاتها؟ أليست عضوة في هيئة التدريس؟!

---

(١) [سورة النور: ٤].

وأين مشاركتها؟!

تقول الطالبات: إن المعلمة الوحيدة التي تجرأت أن تتفوه لتدافع عن المعلمة (سلمى) آنذاك كانت (شاهة). إذ ردت بموضوعية خبيثة تقول:

ـ حيث أن زوج زميلتنا ـ الأستاذ حسن ـ مدرس في ثانوية البنين، فهو يعتبر بحكم المهنة زميل لنا. فلماذا لم تدعوه للحفل؟ وكيف ستحضر الأستاذة سلمى للسهر معنا، وتترك زوجها في البيت وحيداً؟!

تمتمت الطالبة «عائشة»: وهل صارت دور العلم، ومعاهد تأهيل المعلمات، دوراً لتعليم الطرب والرقص وسماع الموسيقى الصاخبة؟!

لقد تحول الفصل بوجود المعلمة (شاهة) إلى مجموعة من الفتيات تسودها الثرثرة وإلى مجموعات تتحزب ضد بعضها، لقد أصبحت القلوب بعيدة عن الحب الأخوي حيث يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه.

وأثناء النقاش المفعم بلغو الحديث، مرت المعلمة ـ بشرى ـ ذات الظل الخفيف والروح المرحة... فوجدت المعلمة ـ شاهة ـ تجلس وبعض الطالبات يتحلقن حولها، وأصواتهن تصل إلى مسامعها.

وكانت تعرف أن هم معلمة الدين النصراني: إغراء

النفوس الضعيفة... ثم أشارت بيدها بالتحية وقالت:

ـ «تكلموا بما ينفعكم ولا يضركم»... ثم تابعت سيرها، بعد أن بادلها الجميع الابتسام.

أما المعلمة «شاهة» فقد اعتراها الارتباك. بينما تنهدت الطالبات المتدينات ارتياحاً وسروراً.

* * *

وفي الفسحة وجدت ـ المعلمة سلمى ـ الممرات قد ازدانت بألوان النشاط المختلفة. فأرادت أن تعاود طلبها السابق في تخصيص غرفة للنشاط الديني. والاستفادة من حرمة الشهر، وانتهاز تلك الفرصة لعل مادة الدين تنال حقها كغيرها من المواد...

فقد كان لكل مادة من مواد الدراسة نشاط معين. ولكل مادة غرفة خاصة لنشاطها ذاك، ودرجة خاصة له.

يممت «سلمى» وجهها شطر غرفة المديرة...

وطلبت منها غرفة للنشاط الديني، أسوة بالمواد الأخرى... لكن المديرة ردت بلطف متكلف قائلة:

ـ «كلك نظر يا أستاذة!

المدرسة ضيقة»! وبدأت تكرر معزوفتها التي أصبحت محفوظة:

غرفة للرسم، وأخرى للموسيقى، ولأدوات الرياضة، وبجانبها غرفة لتغيير ملابس الرياضة، وثالثة للرياضيات، ورابعة للعلوم التطبيقية...

قالت سلمى:

ـ يا أستاذة تعلمين أنه لا بد من نشاط يستقطب فراغ الطالبات. فالفراغ مجال يلعب فيه الشيطان بالنفوس الضعيفة...

فلم لا نسعى لتحصينها وسد أبواب الشر؟!

والنفس إن لم تشغل بالطاعة شغلت بالمعصية... ثم إن عند بناتنا الشابات طاقات يحسن بنا أن نستثمرها في دروب الخير...

ثم تابعت حججها: إن النشاط «يا أستاذة» له درجة في كل مادة فمن أين سنضع هذه الدرجة؟

لا بد من نشاط له وقت محدد على الأقل، ونحن على الاستعداد لعمله حتى ولو في الفسحة وبين الحصص... هذا بعد موافقتك!.

أما المسجد: فهو ضرورة للمدرسة لتقام فيه الصلاة. لا سيما وأن كثيراً من الطالبات يبقين في المدرسة في فترة الظهر. وبعضهن الآخر يبتن في السكن الداخلي للمدرسة أيضاً.

ولما اعتذرت المديرة بأن المسجد ليس له مكان من ستين غرفة موجودة في المدرسة، عرضت المعلمة سلمى رأياً وجيهاً يومذاك وهو أن تكون الصلاة بين الممرات في قسم السكن الداخلي للطالبات. فلا يحتاج لغرفة خاصة، إذ كانت المدرسة تحتوي على قسم داخلي تبيت فيه الطالبات القادمات من القرى المجاورة للمدينة.

وحتى ذلك الرأي، لم ينل القبول من المديرة. فقد رفضت أيّ نشاط ديني، حتى كلمات الصباح، أو عمل مجلات حائطية، أو عبارات التوجيه...

وأخيراً قالت المديرة معتذرة:

ـ يا أستاذة سلمى، هذه تعليمات أتقيد بها، ولن أخرج أنا وأنت عن التعليمات، قالت ذلك وأنهت الحوار... لقد أعادت المديرة إلى الأذهان ما عمله ـ جوردون ـ في السودان حين طالب الطلاب بمصلى، فاتصل بحكومته يسألها وطلب منها عمل ما يلزم لمنع المصلى..!

وها هم في دار المعلمات يستكثرون مسجداً تصلي به الطالبات! مجرد غرفة، وحتى الممرات؟!

عادت المعلمة ـ سلمى ـ آسفة حزينة، مستغربة كيف وصلت حال المدينة إلى هذا التردي، ومحاربة أبسط فرائض الإسلام، الصلاة، الحجاب الساتر...

دخلت ـ سلمى ـ غرفة المدرسات لتجد منظراً مقززاً في يوم من أيام الصوم المبارك.

كانت ـ سهاد ـ معلمة الخياطة، عريضة القفا، سمينة، تسترخي بسعادة قرب المدفأة، تحيك (بلوزة) من الصوف... وقريباً منها تجلس المعلمة ـ فادية ـ تقضم قطعة من الخبز المغطاة بالزبدة والمربى، وتتبادلان معاً أطراف الحديث...

دون مراعاة لشهر التوبة وحرمة أيامه المباركة.

أما «شادية» فمعلمة رشيقة الحركات، يقال إنها شاعرة. كانت معلمة للغة الإنجليزية.

كانت لا ترى في حصة الفراغ إلا وهي تنفث سيجارتها. وإلى جوارها زميلها ـ عادل ـ الذي سألها بأدب صناعي:

ـ هل تريدين فنجاناً من القهوة؟!

وجلس يشرب القهوة. وهي لا زالت تنفث سيجارتها ثم تقول:

ـ متزمتون!!

شادية، المعلمة الشاعرة، ذات المشاعر المنفعلة، والتي كانت كثيراً ما ترى ساخطة على ابنتها ـ سيرين ـ كلما سئلت عنها، كانت شادية تشتكي بمرارة تصرفات ابنتها الوحيدة ـ

سيرين ـ عندما كانت تمضي يومها أمام المرآة. . .

وفي هجعة الناس، خلال الليل البهيم، كانت سيرين تتحدث في الهاتف الساعات الطوال، حتى إذا أحست أن أحداً يراقبها أقفلت السماعة!

وكثيراً ما كان يدور الجدال الحاد بينها وبين أمها المعلمة (شادية) وغالباً ما يتحول الجدال إلى شجار!

اعتادت الزميلات سؤال (المعلمة شادية) عن ابنتها (سيرين) يومياً. وباتت أخبار «سيرين» معروفة وأمها تزيد الطين بلة، برواية أخبار ابنتها اللعوب!

قالت لها إحدى صديقاتها يوماً:

ما بالك لم تحدثينا عن سيرين وأخبارها هذا اليوم؟!

تهلل وجهها وقالت بانشراح: «تمام! إن سيرين في أحسن حال! دعوها تغطس بين الكتب. . .».

استبشرت صاحباتها لرؤيتها وقد أصبح وجهها زاهياً مشرقاً. وعندما سألوها أي كتب تقرأها «سيرين»، هزت الأم أكتافها وقالت:

ـ «لا أدري، أياً كان الأمر، هي كتب، واشتغالها بها أحسن من هزة البدن معها. .».

وتطورت الأيام، فإذا بشادية تبدي السخط والغيظ من

ابنتها قالت: «يجب أن لا أتركها تلقي بيدها إلى التهلكة».

لكن ما فات شادية أن تدركه أن التهلكة في توجيهاتها هي وطاعتها هي!

لقد ساء «شادية» أن توطدت الصلة بين ابنتها والطالبات المتدينات.

وسمعت - سيرين - منهن عن قصص الأجداد ومفاخر الآباء، وتراث الأمة العظيم...

وبعد أن كانت شادية تود أن تؤثر ابنتها في زميلاتها فتفسدهن، تتحسر اليوم وتقول: «ذهبت لتصيده فصادك» ومن ثم تعرض بلباس الجلباب شأنها دائماً وتقول:

- ماذا يريدون لبلادنا؟!

على الإدارة أن لا تسكت على مثل هذا التأخر المشين!

وكيف يسمح تحت سقف هذه المدرسة لهذه الحماقات أن تستمر؟!».

ردت عليها المعلمة - هدى - بموضوعية، قائلة:

- ما العمل إذن؟! وكلنا يرى لباس الراهبات، ومنهن ممرضات وطبيبات ومعلمات أيضاً!

لكن المعلمة شادية ما كانت لتقتنع فتابعت بإصرار:

- إن كل ما نخشاه أن تزودهم هذه - وتلمز بالمعلمة

سلمى ـ بالمعلومات، وتشجعهن على المضي في طريقها، ليصبحن مثلها، ويتابعنها في زيها وفكرها!

«كيف يُسمح بهذا ونحن أقوى تجمع في المدرسة، بل وفي البلد أيضاً»؟!

لقد كانت شادية منسجمة مع نفسها المتعجرفة، وقد تمكن منها الشر فلم يعد لها عمل إلا متابعة ـ سلمى ـ وعرقلة أعمالها... ! وعلام تلومها؟ أفي قدرتها على التأثير على الطالبات وإقناعهن ليعملن عن طيب خاطر بمبادئها؟!

أم لأنها استطاعت أن تستحوذ على عواطف الطالبات ومحبتهن؟

أم لأنها نجحت في إقامة علاقات طيبة مع الأهل وحظيت باحترام الجميع؟!

وهذه أمور لا تنكرها حتى أكثر المعلمات حقداً، وهي النصرانية (شاهة) كانت إزاء محبة الناس لـ ـ سلمى ـ لا تفتأ تظهر في كل مناسبة محبتها وتقديرها لها...

تعمل (شاهة) ذلك تملقاً للطالبات وسعياً لكسب قلوبهن!

فما أسهل ذلك التلون والتملق على أمثالها، لتعلن بعد كل دسيسة لها عن المتدينات كلمتها المشهورة:

«لكن والحق يقال: إن الأستاذة سلمى ليست كغيرها، إنها تمثل التدين الصحيح»!

كانت الحياة في تلك المدرسة صراعاً بين الحق والباطل، وأنى يتم التعاون بين المتناقضات؟!

فكان لا بد من المواجهة ولا يمكن تفاديها. . .

دخلت المعلمة ـ سلمى ـ إلى الفصل وقد كتب على السبورة وبخط جميل أبياتاً من الشعر:

إذا خـــان الأميـــر وكـــاتبـــاه
وقـاضي الأرض داهـن فـي القضـاء
فـــويـــل ثـــم ويـــل ثـــم ويـــل
لقاضي الأرض من قاضي السماء

نظرت المعلمة إلى السبورة، ثم سألت: ما هذا؟!

وهي التي اعتادت أن ترى السبورة نظيفة مهيأة للملخص السبوري: وقفت الطالبة ـ سارة ـ وقرأت البيتين بحماس بالغ، وصوت جهوري مؤثر، فضج الفصل بعد ذلك بالتصفيق والتأمين على ما تقول. أضافت الطالبة المهذبة ـ سارة ـ بانفعال: لقد سئمنا من الحياة في هذه المدرسة. قالت ذلك وهي التي كانت تخاف من أن تحرك شفتيها وتنبس ببنت شفة أو بكلمة!

أدركـت المعلمـة سلمـى أي واقـع مـر تعيشـه الطـالبـة وزميلاتها. . . فواستها وشدت أسرها بقولها:

ـ لا يا بنيتي، لا تحزني ولا تضعفي. هذا هو واقعنا الذي يجب أن نتعامل معه. إنها الغربة الحقيقية، فطوبى للغرباء...

هذا واقعنا الذي نعيشه ويجب أن نعمل على تحسينه.

أما تعلمين أننا يجب أن نجتث الواقع المنحرف بإيماننا وتعاوننا على الخير؟!

واستبشري أن كواكبنا النيرة ستضيء ظلمة الليل.

فاحتسبي الثواب يا بنيني في كل عمل، ولا تدعي اليأس يسيطر عليك.

ردت الطالبة بانفعال وقالت:

ـ إلى متى نراوح في مكاننا يا أستاذة؟! وما قيمة المعرفة التي نتعلمها إذا لم تتحول إلى عمل جاد نافع؟!

وهنا أشاعت سلمى في نفس طالبتها الأمل بقولها:

ـ هوني عليك، فلا بد لليل أن ينجلي، ونحن بانتظار جهودكن أنت والمخلصات من زميلاتك.

فكم سطر التاريخ أسماء سيدات فاضلات كان لهن أكبر الأثر في مجتمعاتهن. من خلال التربية البناءة التي أنارت طريق الأجيال..!!؟!

كانت إحدى الطالبات تسترق السمع، وتنظر مشدوهة وقد غاظها الحوار، فأبدت رغبتها في أن تدلي بدلوها فقالت:

ـ اعذري تطفلي يا أستاذة.

فعلام نلوم المدرسة، وما هي إلا جزء من المجتمع، وعملها تنفيذ التعليمات التي تردها؟!

ثم أردفت قائلة بكل تبجح، وهي توجه الكلام لزميلاتها الطالبات:

ـ أناشدكن الله، أليس النقد اليقظ دأبنا؟! أليس العمل البناء شعارنا؟!

أليست المحافظة على التراث همنا؟! أليس. . أليس. . !

وكررت كثيراً من الشعارات الجوفاء التي تسمعها في المذياع!

ردت الطالبة ـ سارة ـ وقد نفد صبرها، وطف الصاع كما يقال:

ـ قولي ما شئت، وخذي وسام الإخلاص لوحدك!

أسكتت المعلمة ـ سلمى ـ الجميع بقولها:

عجيب أمركن، لا تتفوهن بأي كلمة أخرى. . !

ثم تابعت درسها تفسر قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا ﴾.

وانتهت الحصة، وبعض الطالبات يتمتمن:

حقاً: إن الاستعمار الفكري الذي يخدر الشعوب ويفرقها أشد من استعمار الحديد والنار.

وحقيقة نحن في غربة بين أهلنا وذوينا، والقابض على دينه في آخر الزمان كالقابض على الجمر.

## (٧)

# «حوار ساخن»

غصت القاعة الكبيرة في دار المعلمات بما ينوف على سبعين معلم ومعلمة، حرصوا على الحضور رغبة أو رهبة. لما حصل سابقاً من تأكيد على أهمية هذا الاجتماع الفريد.

فقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء، ولم يحدث خلاله إلا اجتماع واحد، والأندر من ذلك أن يصمم مدير التعليم في المنطقة على حضوره.

أخذت كل معلمة مكانها في القاعة، وحرصت ثلة من المقربات للمديرة على أن يجلسن بجوارها.

وتصدر المنصة الرئيسية مدير التعليم، وجلست مديرة المدرسة على يمينه، وجلس على يساره د. طنوس الذي كان يبدو متنمراً للحديث من بداية الجلسة، وتولى أكثر الحديث، وأخذ زمامه وبدأ بنشر الأراجيف وتأليب الأجواء ضد كل ما يمت إلى الدين بصلة.

وكان من ضمن كلامه، بعد أن أبدى امتعاضه من وضع الطالبات الثقافي والديني، أن قال:

ـ ما لهؤلاء الطالبات الساذجات، أسألهن من أنزل المطر؟! ما سبب المرض؟! وفي كل مرة يقلن: الله، الله، !؟

يا ناس نحن في القرن العشرين!

أما زلتم تعتقدون بهذه المبادىء القديمة، والأفكار البالية؟!

أما آن لكم أن تعرفوا أن المطر سببه السحب وثقل بخار الماء فيها؟

وأن المرض سببه البكتريا والفيروسات. . . ؟!

هنالك أسباب ومسبباتها. . . هنالك قضايا علمية، ثم إن المعلمات زميلاتنا. . . والغريب أنني أدخل لغرفة المعلمات وأقول: صباح الخير. فأجد أكثر من معلمة لا ترد التحية وتتقوقع وتشد عليها ملابسها، وتبقى جالسة كالبلهاء!

وأسفَّ بكلام كثير يومذاك، تقزز منه المستمعون والمستمعات. فتباً له من معلم للأمة!

والويل للأجيال التي سيخرجها هذا الأحمق.

أيسمي العقيدة الراسخة مبادىء وأفكار بالية؟!

أم يطلب من المتدينات النقيات اللاتي يجللهن الحياء، أن يجبن على تحيته الدخيلة؟!

ا لهذا المأفون يجتر كلمات ممجوجة تكاد أن تسمم أجواء المدينة المنعشة؟!

لكن وفي أعماق الظلمات تظهر المواقف الزاهية:

فبارك الله في «الأستاذ نبيل» الذي تولى الرد فكفى وشفى:

ـ «أما عن أخواتنا وزميلاتنا فلكل رأيها.

وأما عن الأسباب ومسبباتها، فإن لم يكن عند المدير والإخوة الزملاء مانع أدليت برأيي» وأشار إلى الحضور، فأبدوا استعدادهم للسماع، وتشجيعهم للحديث.

حتى الدكتور طنوس قال: «هات الحجج السليمة وأنا على استعداد لتغيير رأيي إن تبين لي خطئي فيها حتى نسير وراء صوابك يا أستاذ!» قال ذلك متحدياً.

حبس الجميع أنفاسهم، وأصاخوا بسمعهم، والأستاذ نبيل يردد:

«اللهم ثبت جناني وأدر الحق على لساني».

ثم انطلق الأستاذ المهيب «نبيل» يتحدث بعزة نفس وبلهجة صادقة، وصوت جهوري:

ـ يا أيها الزملاء، إننا إذ نبحث عن الأسباب وعللها، إنما يكون ذلك بحدود عالم الشهادة الذي نعرفه.

صحيح أن كل ما حدث في الكون له سبب مادي. لكن الأحداث ومسبباتها جميعاً من خلق الله، ولا ينكر ذلك إلا مكابر جاحد.

وهذا لا يعني التخلي عن الجد وبذل الجهد. ولا يدفع للتكاسل وإهمال البحث عن المسببات المحسوسة.

لكننا أيها الإخوة نقف عند حدودنا، ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده.

وما كان الإسلام يوماً ضد العقل، إنما يأمر باستغلاله، ويحث على البحث والاستقصاء. والمسلمون هم أوائل من أدخل المنهج التجريبي في الأبحاث، ولا ينكر ذلك أحد منكم.

وما جرى من فصل لتعاليم الدين عن الاكتشافات العلمية في أوروبا، فقد كان بسبب ضيق أفق الكنيسة هنالك، أما الإسلام فيختلف عن الخلفية التي ينتح من مياهها بعض المتفلسفين!!

ولا ينكر عالم الغيب إلا ضال مضل يشوش أفكار الآخرين.

ألا وليعلم من يسيء للعقيدة، أن كل كنوز الدنيا ترخص أمام جدار العقيدة الشامخ.

تظاهر د. طنوس بالحلم وهو يرد عليه:

ـ نحن نحترم وجهات نظر الآخرين. أنا معك يا أستاذ، صحيح أن الله موجود، لكن الخرافة لا تحتمل يا سادة! والإيمان الأعمى التقليدي لا يجدي؟!

وكان الأستاذ نبيل، مثقفاً واسع الاطلاع، يظهر عليه الاتزان، مع جرأة أدبية ولباقة، فكان أحسن من يرد عليه إذ قال:

ـ لا تظن يا دكتور أننا لا نكره الخرافة والأسطورة. إن ديننا الإسلامي يدعو إلى التأمل في ظواهر الكون بل وفي الإنسان نفسه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ وقال أيضاً: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

أيها الزملاء: إننا نحن المسلمين أبعد الناس عن الجمود العقلي والانغلاق الذهني. وديننا لم يكن يوماً قيداً على العقول.

استنطقوا التاريخ يحدثكم عن أمجادنا...

ومن العار أننا في بلد مسلم نسمح بمثل هذه الأفكار. ويسوء كل واحد منا أن تتردد هذه الشركيات في معقل من معاقل العلم والإسلام. ثم قال محتداً:

ـ لا أريد أن ألقي عليكم محاضرة!

اعذروني جميعاً والحديث يطول، وفي النفس جراحات!

قال ذلك ثم جلس حانقاً.

لقد كان كلام الأستاذ نبيل مفحماً للدكتور الذي قال عنه فيما بعد:

ـ «لو نزلت عليّ صاعقة لكان ذلك أهون عليّ مما سمعت».

هذا رغم أن الدكتور أضاف باستهتار في ذلك الاجتماع:

ـ والموضة الجديدة التي جاءت بها الطالبات أخيراً. . . ما رأيكم بها؟! قالت المعلمة (فاتن) وهي معلمة نشيطة، كانت رغم أنها نصف سافرة، تحب العمل ولا تتملل منه، إلى جانب اتزانها وتعقلها فقالت موجهة الكلام إلى د. طنوس:

ـ يا أستاذ، بصفتك دكتور في التربية، ألست معي أن الكبت المتزايد قد يؤدي إلى العقد النفسية. . .

فهل نريد تخريج معقدات؟!

وكيف يتأهلن لتربية الأجيال بعد ذلك؟!

ثم ألا ترى أن من نشأ في بيئة القمع والكبت قد يصبح منافقاً؟!

فهل نريد زيادة عدد المنافقين والمنافقات في المجتمع؟!

أم نريدهن ناقمات على المجتمع، وكما قيل: فكثرة الضغط تولد الانفجار؟!. لقد وضعت المعلمة فاتن النقاط على الحروف...

لكن الدكتور عبس وبسر، وانهزم ولكن غالط نفسه وتنمر لقد كان في ورطة في تلك اللحظة، وجوبه بذكاء ما كان يتوقعه من المعلمة الفاضلة.

أما المدير فقد بدا الضيق على وجهه... وبدأ يسدي توجيهاته الصبيانية... واختص بوافر الشكر المعلمة (شادية) أم سيرين إذ استطاعت تحقيق الاستهتار والتسيب ما لم يقدر على تحقيقه غيرها من المعلمات...

واقترح على الجميع التعاون لإجهاض حركة الحجاب في المدرسة. ومظاهر العودة إلى الدين.

ـ يجب أن لا نقر أي عمل رجعي في المدرسة، وهذا أولى واجباتكن، عليكن بالإقناع والترغيب لنبذ مخلفات القرون البالية! والباقي علينا نحن المسؤولين...

أم أن بعضكن تريد تشكيل الطالبات على نمطها هي؟!

قال ذلك وهو يغمز بحجاب المعلمة سلمى الذي كان يحاربه أينما حل وفي كل مناسبة تمر. ثم أردف قائلاً:

ـ إن كونها معلمة لا يرخص لها التدخل في شؤون الطالبات!

كم مرّ على المحافظة من معلمات قبلها، فلماذا لم تكن هذه المشاكل؟! لماذا لم تظهر المشكلات إلا بعد وجودها؟!

كانت ـ سلمى ـ معلمة حيية خجولة. قليلة الكلام. لكنها في الحق لا تهاب أحداً.

ورغم حيائها فقد كان في عينيها التصميم والإصرار. وهذا ما يعرفه الجميع عنها. لذلك إذا تكلمت حبس الكثير أنفاسهم، وأصاخ الجميع بسمعهم... فقالت بكل أدب وحجابها يسترها:

ـ يا أستاذ، لماذا تمدحون الشيوعية، وتريدون أن تضع بصماتها على كل أمور الحياة. وتصبغ كل ما في المجتمع بصبغتها، اعتباراً من عامل المنجم في جوف الأرض، إلى الطيار في عنان السماء، ومن عالم يغزو الفضاء إلى مهووس يريد أن يغزو النفوس؟!

لماذا يا أستاذ يطلب من الإسلام وحده أن يكون قابعاً في زاوية من زوايا الحياة ليقتصر على بعض العبادات؟!

إني أستغرب علام نختلف إذا كانت أهدافنا جميعاً زرع الفضائل؟! وإذا كنت أنا بصفتي مسلمة أولاً، ومعلمة دين

ثانياً، إذا كنت أساعد الطالبات على فهم أمور دينهن، للخروج من متاهات المبادىء الضالة، فما الخطأ الذي أرتكبه؟!

والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[1]، فبدلاً من أن أشكر على الجهود التي أبذلها لغرس الفضيلة والستر والحياء، أقابل بالجحود والنكران...

وأنا لا أنتظر الشكر من مخلوق، وإنما أحتسب ما أقوم به عند الله جل وعلا.

قال المدير: دعينا من هذا يا أستاذة، فالوقت غير مناسب.

امتعضت إحدى المعلمات الفضوليات فقامت لتتحدث، وكان كلامها أشبه ببارود في فوهة مدفع سينفجر حين قالت:

ـ غريب ما نحن فيه، ففي الوقت الذي يجب أن ننهض بالكفاءات يدمرها بعضهم ويحاول إحباط كل ما فيه خير للأمة...

---

(١) [فصلت: ٣٣].

لكن المدير نهرها بقوله:

- اصمتي ولا تقاطعيني! ومن خولك أنت بالدفاع عن حقوق الأمة؟! ومن فوضك بذلك؟!

ثم قال وقد بلغ به الغضب مبلغاً كبيراً:

- كنت أظنك - قبل اليوم - واعية، الزمي حدودك ولا تدخلي فيما لا يعنيك!

ومن تساندين إذن؟ أتساندين الرجعية؟ فقاطعته بقولها:

- لمَ الغضب يا أستاذ؟! أهذا هو الحوار التربوي؟!

أرجوك دعني أكمل، ورأيي لا أشك أنه يحظى بموافقة الجميع.

امنحني المجال للكلام مدة خمس دقائق فقط، لا أريد غيرها!

لم يجد المدير مندوحة من الاستجابة، فأذن لها فأكملت:

- «إن ما يدور في اجتماعنا العجيب اليوم قد يخدم الأعداء قبل غيرهم. ولن يرضى أي وطني في ذلك.

ثم إنه ليس معقولاً أن نجتمع اليوم يا سعادة المدير، لتصب في آذاننا قوارص الكلمات! ثم التفتت إلى الأسرة المدرسية فقالت:

ـ إننا أيتها الأخوات دعينا للاجتماع، لا لجرح كرامتنا!

دعينا إلى الاستماع لما ينهض بأجيالنا لا إلى الاستماع إلى الشتائم في ديننا!».

رد المدير: بل جمعتكم لتصوبوا مسار المدرسة!

قالت وهي تنظر شذراً: هل تريدون أن نصوبها على طريقة ـ أتاتورك ـ فماذا أفرزت طريقته؟!

لقد نظمت طالبات تركيات اعتصاماً للاحتجاج على رفض سلطات مدينة اسطنبول تسجيل أسمائهن بسبب ارتدائهن الحجاب. وقد كتب على لافتة حملتها الطالبات المحجبات اللواتي اعتصمن بالجلوس أمام بوابة الجامعة: سنصون شرفنا!

وماذا أفرزت الحضارة المزيفة غير أجيال تدنت إلى الحضيض؟!

ثم أردفت متسائلة:

ـ هلا أوضحت ما المطلوب من بناتنا بنات الإسلام؟! لا سيما وأنتم تقولون أن الإنسان هو أغلى ما في الوجود؟!

وأما المدير، فأوجز ما بنفسه قائلاً:

ـ لن نترك لهؤلاء أن يتمسكن بحجابهن، فإن تركنه فهن

أخواتنا وبنات البلد الواحد، وإلا فلا بد من ردعهن وإيقافهن عند حدهن، لئلا يُسئن بوجودهن إلى البلد ويفسدن وجهه التقدمي الحضاري!

لقد كان المدير في ذلك اليوم مضطرباً منفعلاً، كشف عن بقايا حماقاته. وكان محتاجاً إلى من يعلمه معنى الحياة، لا أن يعلم هو الناس، وهو الذي لا يقيم وزناً لمبدأ أو دين.

أمثل هذا يكون مسؤولاً عن التربية والتعليم في محافظة كبيرة في بلاد الإسلام؟!

لقد أراد إنقاذ الموقف، فاستعان بالمديرة، التي اقتصر دورها على التعريف بالموظفات، ومن ثم أمضت بقية الجلسة صامتة واجمة. كانت تعلم أن ما يقوم به المدير والدكتور يحظى بدعم كامل من السلطة. وعندما قال المدير: سأفسح المجال للأستاذة المديرة لتدلي بدلوها في هذا الحوار...

أخذت المديرة المتصابية تعدل من شكلها وجلستها. ثم أبدت تأييداً كاملاً لما يقوله المدير...

ولا عجب في ذلك، لقد كانت مثله، تغوص في متاهات مظلمة من التبعية والوصولية.

وقالت:

ـ المطلوب هو الالتزام بالمنهج المدرسي. وعدم التطرق إلى موضوعات أخرى...

والحمد لله كلنا لدينا الإيمان. ولكن الزمان تغير فلا بد أن يواكب الدين العصر وتطوراته!

إن الأيام قد تغيرت، وتغير الآن كل شيء حتى اللباس، تطورت أشكاله وأنماطه.

قالت سلمى في نفسها: «أستغفر الله. هل من المعقول أن الثابت الراسخ هو الذي يغير لأجل المتحول؟

وهل الدين هو الذي يتم تطويعه وفق متغيرات الزمن أم العكس؟!» وكان كتاب التربية الإسلامية في حقيبة المعلمة سلمى؛ فتحت الكتاب، ثم قدمته إلى المديرة، وقالت: هذا هو المنهج بعينه، لم آت بشيء خلاف منهج الكتاب...

كان المدير، ضيق الأفق، حرج الصدر، فيه سخف وطيش، فخطف مدير التعليم الكتاب من يد مديرة المدرسة وقرأ في الصفحة المفتوحة:

«المسلم مأمور بالأخذ بالأسباب، فالله تعالى يقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[1] لكنه لا يعتقد

---

(١) [الليل: ٥ ـ ١٠].

أن الأسباب هي وحدها المنشئة للمسببات، فالأمر كله لخالق الأسباب وحده؟!

... لم يكمل المدير القراءة... وهو الذي قد ملأ الغيظ قلبه، وأبى الانصياع للحق.

فألقى الكتاب ورمى به بعيداً وقال:

ـ «لا يمكن البت في هذا الموضوع في هذه العجالة!

وليكن بعلمكن أن من يقف في وجهي سيعرف أن نهايته وخيمة!».

أين الحكمة الواجبة في رجال التربية؟! وأين احترام الآخرين؟!

وهل هذه هي أخلاق المهنة التي يجب أن نربي عليها الأجيال؟! أو ما تذكر أن الاعتراف بالحق فضيلة؟!

استاءت المعلمات من رمي كتاب فيه ذكر الله عز وجل... ومن تهديداته الهوجاء! وتساءلن:

«ما المنطق الذي يفكر فيه هذا القزم الوصولي وذلك الدخيل الحاقد؟ أكان مخموراً؟!

وما فائدة آرائنا إذا كانت لا تغير شيئاً من قناعاتهم؟!»

وأما المعلمة سلمى فقد وقفت صامدة، وهي تنظر إلى الثلة الفاسدة بازدراء، فبدت كعملاق بين الأقزام وقالت:

ـ «اصنعوا ما شئتم! فغمد خنجر في قلبي أحب إليّ من غمده في عقيدتي!».

قالت ذلك ثم قاطعت الاجتماع!

وتوالى خروج أكثر المعلمات والأساتذة... خرجوا مرفوعي الرأس لأنهم يدركون صدق قضيتهم التي يدافعون عنها...

ثم وقف الأستاذ نبيل ليقول:

ـ نصيحتي للكثيرين أن يصمتوا ليؤجروا!

رد عليه المدير بعصبية مقيتة: ومن قال إننا نريد نصائحك؟ بل ومن قال لك إننا نريد الأجر؟!

لا نريد الأجر ولا الثواب، اكتف به لنفسك يا أستاذ نبيل!

ثم قال لنبيل وقد ازدادت شقة الخلاف بينهما، ولم يعد يحتمل حتى مجرد رؤيته في القاعة:

ـ وأنت أيضاً يمكنك أن تلحق بهم وتنصرف...

وبقيت الصالة خاوية إلا من المدير وثلة من المرتزقة يتوعدون:

«يجب بتر العنصر المحرِّض».

وأما المعلمة (شادية) فقد كانت تدخن بشراهة في ذلك

اليوم وتطلب فنجاناً من القهوة بعد الآخر. . .

وفي نهاية الاجتماع، خرجت حانقة غاضبة، وكانت ابنتها سيرين تجلس باحتشام على كرسي في الممر المحاذي لصالة الاجتماعات. . .

لكن شادية تركت مشيتها المتزنة وسارعت باتجاه ابنتها سيرين، وبكلتا يديها بدأت تصفعها وتشد شعرها. وابنتها الملتزمة تتحاشاها. . .

وتسأل باستغراب: ما بك يا أماه؟! يا هداك الله. . .

حاولت (شادية) أن تسحب ابنتها الوحيدة (سيرين) من يدها لكنها لم تعد تقوى على السير. وصارت تهذي: أيها المتأخرون أيها المتخلفون، كفى، كفى. . .

أما سيرين، فكانت تبكي بكاء مراً، ولسان حالها يقول:

يخـــاذلنــي العــدو فــلا أبــالــي
وأبكــي حيــن يخــذلنــي الصــديــق

ارتمت «شادية» على أريكة في غرفة المعلمات، وهي تنشج بالبكاء وتحمل على كل من جاءت بهذه التقليعة!

وكأن الالتزام بالدين تقليعة. . .

وكانت تقول: ابنتي، مهجة قلبي، التي كانت زينة الصبايا، ومشيتها أجمل من مشية عارضات الأزياء. . .

كيف تغطي ذلك الجمال الغض، بهذا اللباس المشؤوم؟!

كنت أظنها تبحث عن ثقافة العصر، حينما كانت تبحث في ثنايا الكتب فإذا بها تنهل من رجعية تلك الكتب القديمة التي ابتليت بها، متأثرة بزميلاتها الرجعيات المتأخرات. . .

كانت «شادية» امرأة متصابية حمقاء!

والكل كان يثني على تصرفات سيرين الجديدة. فقد نالت إعجاب الجميع.

ولو كانت شادية منصفة، لشكرت ابنتها، وحمدت الله على سترها وخفرها.

خرج المدير، وعند باب المدرسة، نادى البواب الطيب وقال وقد فقد أعصابه:

ـ أيها الخادم الأبله! أتعرف كيف تتبرم مما نحن فيه، وتقول:

إن البغاث بأرضنا يستنسر؟!

ثم لطمه وهو بسن والده، وقال له: أفهمت المقصود؟!

رد عليه البواب بكل ثبات: اعملوا ما شئتم، روجوا لبضائعكم فلن تجدوا إلا الكساد!

اسحقونا تحت معاولكم فلن تجدوا إلا الرجال!

تهجموا على قيم الأمة فلن تجدوا إلا التمسك بها والثبات!

وأخيراً انفض الاجتماع، وخرج الجميع ولسان الحال يقول: إن واجبنا أن نصحح مسار المدرسة...

كل «يصحح حسب طريقته وأفكاره...»

كل «يصمم على ذلك على اختلاف مشاربهم..».

وأما النخبة الصالحة فلسان حالهم يقول:

«يا حسرة على أجيالنا المقهورة كم تحتمل من نذالتكم. وتردد قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

(٨)

## «هل انتهى الكفاح؟!»

كان الظلام قد حل حين خرج (عبد الفتاح) من منزله. . . خرج لاستنشاق الهواء النقي، فهو ابن القرية الذي اعتاد العيش في أحضان الطبيعة، ولم يألف حياة المدن الصاخبة.

إنه وإن ألجأته ضرورة العيش، إلى الحياة في زحمة المدينة، ليشتغل فيها عامل بناء، لكنه ظل مأسوراً لجمال الطبيعة، ولا سيما في فصل الربيع الجميل.

كان (عبد الفتاح) يسير في طريق فسيح على طرف البلدة، يتمشى عبر شارع فيه بصيص أنوار قليلة. . .

وكان عدد المارة قليلاً أيضاً، كانوا كذلك قد خرجوا علّهم يتنسمون الهواء العليل، ويتمتعون بجو الربيع البهيج.

لقد ضاق صدر (عبد الفتاح) من كثرة ما كان يسمع عن دار المعلمات ومديرتها، وما كانت تضعه من عقبات في طريق المتدينات. وما تمارسه من ضغوط نفسية وتآمر مريب.

فعقد العزم على أمر، لو حانت له الفرصة المناسبة!

ولم يكن همه إن كانت المديرة تعمل ما تعمله عن عقيدة

ومبدأ، أو كانت من الأعوان المتطوعين والوصوليين الانتهازيين. . .

لكنه كان يعتقد أنها وحدها التي تتحمل وزر المسألة التي شغلت المدينة بأكملها بمشاكل عويصة، ما كان أغناهم عنها!

كم كان يتمنى لو ظفر بها، وأشفى غيظه منها، وصفى حسابه معها ـ كما كان يقول ـ!!

. . . وفي تلك الأمسية، وفي ذلك الشارع القاتم، التقى (عبد الفتاح) مواجهة، مع المديرة الشقية، العميلة المتصابية.

ها هي الفرصة التي طالما انتظرها قد واتته.

فلما رآها، شعر أن من واجبه أن يثأر للدين الذي قذفت سمومها للنيل منه، وأن يغسل العار الذي ألحقته بهم، عندما فسحت المجال لكل قزم ومارق ليتعرض للدين في مدرستها، ولطخت سمعة الجميع إذ تهاونوا في الذود عن حياضه. أهاجت المديرة، حمية (عبد الفتاح) بشعرها المنكوش وثيابها الصفيقة، ومشيتها المتصابية. . فسرعان ما غطى وجهه بكوفيته. . . ثم تنمر وصاح قائلاً:

ـ لقد ظفرت بك أيتها المخربة!

وصفعها صفعة سمع المارة دوي صوتها حين هوت على رأسها. وبطل الليلة (عبد الفتاح) يجأر:

ـ لا تتحركي أيتها المنافقة!

أخذت المديرة تصرخ، وتستنجد بالمارة. . .

وأصوات واهية تهمس: اركضي، لا تتوقفي. . . لكن هيهات. . لقد ركلها (عبد الفتاح) فوقعت على الأرض، ثم جرى مسرعاً وهو يحمل خصلات شعر بيده قائلاً وقد شعر بنشوة النصر:

ـ لقد قتلت المجرمة، لقد خرجت طاسة رأسها بيدي، وهاأنذا أمسكها!

إذن، قد عملها (عبد الفتاح) حين كان يقول كلما سمع تذمراً من أفعالها: «دعوا أمرها لي» فها هو قد أوفى بعهده. . . وفي عتمة تلك الليلة، سمع (هايل) صوت سيارة الإسعاف تزمجر، فأطل من النافذة، ثم تراءت له الملامح البعيدة للجبال، ونما إلى مسامعه كلمات متعددة:

«سلمت يمينك».

«لقد أرحتنا منها»

«إننا لم نرها في بلدنا إلا ورأينا كل كرب. . . وتخريب. . .».

وآخر يقول: «لقد نجت الشقية بأعجوبة»!

لكن (هايل) أغلق نافذة بيته بسرعة خوف المساءلة. . .

وكان آخر ما رآه، غمامة شديدة الغبار، قد انجلت عن جسد ملقى لم يتبينه من الظلام. . .

وصار يدعو مستقبلاً: ليته بقي ملقًى إلى الأبد!

وفي اليوم التالي: كانت الصحف تحمل أوصاف رجل مطلوب. . .

وبدأ البحث عمن يسمونه الجاني، ولكن هيهات أن يتكلم أحد ممن عرف الحقيقة وأدرك كنهها، أو بلغه شيء عنها!

لقد شفى (عبد الفتاح) صدور قوم كثيرين. وأنى للثقات المقربين أن يكشفوا سر بطلهم في ذلك اليوم!

لقد أصبح الحادث مجرد ذكرى!

وعولجت المديرة من كدماتها، لكنها لا زالت تنوء تحت وطأة الذكريات.

وما زالت يتراءى لها أن كائناً مرعباً يلاحقها حيث حلت. . .

ورغم كل ما هي فيه، كانت تقول لزائراتها بعد علاجها، كانت تقول: كلمتي الوحيدة هي:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

تقول ذلك رغم ما كانت تشعر به من هزائم:

هزيمة قبل الحادث: جعلتها ترضى بالتبعية بل وتفخر وتعتز بها.

وهزيمة بعد الحادث: بعد أن مرغت بالتراب، وكادت تلفظ أنفاسها في حلكة الليل البهيم.

وبعد شفائها، طلبت أن تنتقل من دار المعلمات، بل ومن المدينة كلها إلى مدرسة في بلدة أخرى، وصممت على ذلك لترد لنفسها اعتبارها (كما كانت تقول دائماً).

لكن، هل كانت المديرة هي وحدها التي تتحمل وزر كل سوء في المدرسة، وما يعرف عنها أن حججها الدائمة: التعليمات، التعليمات، نحن ننفذ التعليمات...

فأين مدير التعليم، وأين أعوانه، أين عصابة تخريب الأجيال؟!

وأين الدكتور طنوس الذي تعجز الشياطين عن سوء أفعاله، وخبث دسائسه.

لقد كان طنوس عدواً ماكراً، أودى به مكره وخلافاته (الحزبية) مع أصدقاء الأمس. فقلبوا له ظهر المجن... وأودع غياهب السجن ليتجرع كأساً مريراً طالما كان قد سقاه لغيره.

وهذه هي الحياة، أشجان ومسرات، صراع وتقلبات، والفائز هو صاحب الصالحات الباقيات.

وأين المراقبة الجميلة (سالي) التي كان كل همها التقرب من المدير القزم؟!

أين هي وقد نغصت فرحتها، وأطفئت مشاعرها المتأججة، عندما خانها ذلك المدير اللعوب. وكان يتأبط ذراع حسناء أوروبية في المطار، وعلى مرأى من عامة الناس، بما في ذلك جيران (سالي)!

لقد كان ذلك مفاجأة أليمة للمراقبة، إذ طعنت في صميم قلبها المتيم.. لقد طاش صوابها وانقلب حبها له كرهاً. وبدأت تنفر من المدير، بل ومن المبادىء المقيتة التي يلوكها بلسانه.. وصارت تحكي عن نقائصه، وتفضح مؤامراته القذرة!

وبئسما فعلت يوم اتبعت هواها، فضلت ثم خابت وخسرت. خسرت حتى أهواءها.

وما كان عليها أن تعرفه جيداً: أن من يتلون في عقيدته، ولا يثبت على مبدئه، لا يمكن أن يعرف الوفاء مع الآخرين...

والمدير القزم، شغل الجميع بما أوجده من بلبلة، وما زال الناس يتحدثون عن أصدائها...

وكان آخر ما تفتق عنه ذهنه: أن قام بوشايات رخيصة أدت في النهاية إلى تسريح المعلمة «سلمى» من عملها، تلك التي كانوا يرونها حجر عثرة أمامهم. ويضيقون ذرعاً حتى برؤيتها في فصول المدرسة وهي الملتزمة بدينها.

وماذا نقموا منها: أهو تدينها؟ وهل يضر ذلك حقاً بقدرات الوطن للتعبئة المعنوية ضد المعتدين، حتى اعتبروا أمثالها من أعداء الثورة.... وعملوا استنفاراً لكل قوى الشر عندهم؟!

أم نقموا حماسها للعمل؟ ولو ترك فرصة لقالت:

- إننا نتساءل لماذا ينجح أعداؤنا حيث نفشل نحن؟!

إنهم لا يعتبرون الحماس للعمل عيباً إلا إذا كان به تهور واستهتار.

أما الحماس الدافع للعمل مع حسن التخطيط، فهو دليل الإبداع وجودة البناء.

أما العمل دون حماس منظم فلا يعني إلا البلادة والركود.

لقد انتشرت الإشاعات وكثرت الأقاويل حول تهديد المدير ووعيده:

«يجب أن لا نغمض أعيننا عن الخطر».

يجب أن لا نتغافل عن العدوى التي تحملها الرجعية!
يجب أن نحمي الأجيال من أن تلوث بمبادئها الدينية العتيقة...

وإلا كيف نفسر عودة بعض الطالبات بل والمعلمات إلى الحجاب؟!

كيف نفسر ردهن على من يتعرض لعقيدتهن ويستفز مشاعرهن!؟

ورغم كل ما أحاط به عمله من سرية، ووشايات ملفقة يرفعها إلى رؤسائه، فقد وصل إلى أسماع المعلمة (سلمى) خبر تسريحها! وفصلها عن العمل.

كانت من ضمن سبع معلمات في ذلك القطر المنكوب.

وحيث أنها كانت في إجازة أمومة آنذاك، فقد نصحت أن لا تتسلم بلاغ التسريح ليكون أمامها فرصة في رفع شكوى لنقابة المعلمين تحمل وجهة نظرها، وتدافع فيها عن نفسها.

فكانت الشكوى تصميماً ليصل صوت الحق إلى المسؤولين ليعرفوا ماذا يجري داخل هذا الصرح العلمي من تصرفات خرقاء، تهدم ما بناه الأجداد من مثل ومبادىء وقيم سامية.

كان صوتاً نشازاً ذلك الذي يجري داخل المدرسة. ما عهدته الأمة إلا من لصوص العقول والأفكار... من الذين يدعون أن قلوبهم تنطوي على حب الإسلام، أما أفعالهم فلا تظهر إلا الحقد الدفين، ففي كل كلمة من كلماتهم تلمح احتقاراً للتراث تارة وسخطاً على الدين وتعاليمه تارة أخرى، وقلوبهم الخاوية تشتعل غيظاً من عودة الفتيات إلى الحجاب الشرعي والخلق القويم.

لقد كانت حرباً ضروساً لكن دون سهام، حرباً سعىٰ فيها إلى إلصاق التهم وأسوأ النقائص في المتدينات، كانت حرباً على أصحاب الكفاءات وما زالت هذه سبل الوصوليين لبلوغ غايتهم.

وكان من الاتهامات التي وجهت لسلمى، والجرم المشهود الذي كانت تقوم به، أنها كانت تصلي في الفسحة خلف باب الفصل!

فاغتاظ الأشرار من صلاتها، ولم ينفعها الدفاع: إننا في بلد مسلم، والصلاة يجب أن تؤدى على أكمل وجه، ولا يتركها المسلم حتى في الحروب... فإذا تلاحم الجيشان لا يحل تركها، فكيف نتركها ونحن في سعة؟!

لكن التمسك بالعبادات والسلوك المستقيم هو تهمة عند

الرجال الثوريين.. بل هو جريمة في قاموسهم تستحق العقاب...

ورغم كل ما هي فيه: من تسريح زوجها لتمسكه بدينه وإقامة شعائر العبادات من صوم وصلاة!!

وهي التي قد بلغتها أخبار تسريحها أيضاً، مما يعني أن كليهما أضحى بلا عمل...

وأخيراً بيتها الذي ودعته بنظرات حزينة.. ودعت فيه ذكرياتها الحلوة... وآمالها الباسمة...

كانت لا تحمل ضغينة لأحد، قابلت الدناءة بالترفع، لكن التهجم على عقيدة الإسلام لا يمكن التغاضي عنه...

قامت بواجبها كما ينبغي لأمثالها. وقلبها الكبير جعلها تعامل الطالبات كأعز الصديقات. كانت لهن أكثر من أخت وأم وصديقة.... فأسرتهن بكرم أخلاقها وجميل شمائلها. ولا زالت الألسنة تلهج بالثناء عليها، والدعاء لها على مر السنين...

* * *

وفي البلدة، أصبح من المناظر المألوفة والممجوجة في آن واحد أن تعتدي السافرات على الحجاب وصاحباته من

الطالبات.. لا يبالين بصرخة المحتشمة وهي تتمسك بفضائلها فيجذبنه عنها بعيداً.

ولا يبالين بنخوة الطيبين، الذين يستثيرون عواطفهم الدينية بقولهم: أما تخافون الله!

وكان أن قاطعت الطالبات المدارس، إذ أضحت المدارس سبباً لسموم الفكر والدين، فتركنها، اعتقاداً منهن أن الدين أولى من العلم، وفي بيوتهن المحافظة يمكنهن تعلمه. وكأن المدارس أصبحت حكراً على المتبرجات!

وكثر الجدال في البلدة:

لقد رأى الجميع أن المدارس قد خسرت كثيراً من العقول المفكرة فلم يعد فيها إلا الطائشة، أو التائهة...

لقد خابت المساعي فلا علم فيها ولا تقدم!

لقد وجدوا أن الأعمال الاعتباطية لا تجدي، وبدأوا بالتفكير بالحلول الجذرية لحسم الأمر:

- لقد أيقن الأشرار أن الحق لن يسحق تحت معاول الباطل. وأن القوة وحدها لن تحسم الموقف...

وبدأوا بتغيير المناهج الدراسية، ليسمموا بذلك عقول الأجيال... قطعوا صفحات من الكتب... وشطبوا

الأسطر.. ولكن الطلاب دفعهم الفضول، فصاروا يتعمدون البحث عما فيها... ليجدوا حرباً شرسة ضد الإسلام... فتعاطف الطلاب مع دينهم الحق...

وأخيراً زعموا أنهم يريدون ترميم ما يمكن إصلاحه، فقالوا: لا بد لهذه المدرسة من إدارة من خريجاتها ومن ذوات الأفق الواسع، من الرافضات لكل ما يمت للتراث بصلة، تعرف مشاكل المدرسة وتحسن حلها بما يتناسب مع أفكار العصر الثائرة على القيم والمثل الماضية... وما زالوا يبحثون.

ولا زالت الذكريات المرة تنهال على القلوب... وما عرفوا أن كل إصلاح مقطوع الصلة بتراث أمتنا الزاهر، ودينها القويم مآله الخراب، ليسألوا التاريخ إن كانوا لا يعلمون!

أما النخبة الطيبة من المدرسات، فقلوبهن النابضة بالخير، تهفو إلى رؤية الجادات في المدرسة. ولقد علمن أن ما يحصل إنما هو من باب تقليد المغلوب للغالب كما قال ابن خلدون.

وتقدموا بمقترحات مخلصة ليجنبوا المدارس المشاكل العويصة التي تسببها ردود الأفعال... وكان من تلك المقترحات:

- عدم التعرض لذوات الحجاب، وعدم مضايقة المتدينات.

ـ فسح المجال للنشاط الديني في المدرسة، أسوة بغيره من المواد ـ وما زال الجدال العقيم بين المهتدين، وبين العلمانيين المنحرفين. . حول مقومات نهضة الأمة. . . .

* * *

ألا بئسما يسعى إليه أعداء الأمة!

هل يظنون أنهم سينالون من قلاعنا الحصينة؟!

عليهم ألا يظنوا أنهم يقضون على آمالنا. . . فليست الوظيفة هي غاية الأماني.

وفي كل محنة ننظر إلى الجانب المضيء فيها فنتعلم الكثير. .

نتعلم أن نصبر ونحتسب، نحتمل ونتجلد، نتعلم أن لا نضيع دقيقة من أوقاتنا سدى، فأوقاتنا ثمينة، نضطلع فيها بمسؤولياتنا كاملة. وفي كل الظروف. . . المحن تعلمنا الكثير، الكثير. . .

فقد قدحت الأزمة لسلمى زناد فكرها، فاتجهت نحو الكتابة الهادفة تعبر فيها عن صدق معاناتها، وسمو غاياتها.

وقد هيجت الصحف على أعداء الدين، وهي تدعو إلى رفيع مبادئها وأكثر ما كان يضيرهم من ذلك قولها:

ـ «إننا نريد أن نربي أم المستقبل، التي تحمل رسالتها السامية، العاملة بأمر ربها القائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

وكلما تذكرت أن المدير القزم قد خسر مركزه فنقل تأديباً. وأن المراقبة الجميلة خسرت صديقها وفتى أحلامها.

وأن الدكتور الخبيث قد أودع غياهب السجون. وأن المديرة الحمقاء صفعت بما تستحق...

أيقنت أن الله يمهل ولا يهمل و﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

---

(١) [الأحزاب: ٣٦].

# الفهـرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٥ |
| ١ ـ بداية طريق الكفاح | ٧ |
| ٢ ـ الطائشة | ٢١ |
| ٣ ـ الأزمة تلد الهمة | ٣٩ |
| ٤ ـ الجلباب الأسير | ٥٥ |
| ٥ ـ فحيح الأفاعي | ٧٣ |
| ٦ ـ طوبى للغرباء | ٨٥ |
| ٧ ـ حوار ساخن | ١٠٣ |
| ٨ ـ هل انتهى الكفاح | ١٢١ |